إفريقية

في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي

قراءة جديدة تكشف افتراءات دعاة الفاطميين

الدكتور ممدوح حسين
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد
كلية التربية - جامعة السابع من إبريل

دار عمار

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

موافقة دائرة المطبوعات والنشر
رقم الاجازة المتسلسل ١١٨٦/١١/١٩٩٦م

رقم التصنيف : ٩٦٤,١
المؤلف ومن هو في حكمه : ممدوح حسين
عنوان المصنف : افريقية في عصر الامير ابراهيم الثاني الاغلبي : قراءة جديدة
الموضوع الرئيسي : ١ - التاريخ والجغرافيا
: ٢ - افريقيا - تاريخ
رقم الايداع : (١٥٠٦/١١/١٩٩٦)
بيانات النشر : عمان : دار عمار للنشر

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الاولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار عمار
الأردن - عمان - سوق البتراء - قرب الجامع الحسيني
ص. ب ٩٢١٦٩١ - هاتف ٦٥٢٤٣٧

المطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
هاتف ٢ - ٦٣٧٧٧١ - فاكس ٦٣٧٧٢٣
ص. ب ٨٥٢ - عمان ١١١١٨ الأردن

إفريقية

في عصر الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي

قراءة جديدة تكشف افتراءات دعاة الفاطميين

الدكتور ممدوح حسين

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة المساعد

كلية التربية - جامعة السابع من أبريل

دار عمار



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاةُ والسلام على البشير النذير محمد بن عبدالله، نبيِّ الهدى والرحمة، وبعد.

فإن المتتبع لمسيرةِ التاريخ، يلاحظُ دون كبيرِ عناءٍ، أنَّ من بين مَنْ أسهموا بنصيبٍ وافر في صنع تاريخ الأمم والشعوب، مَنْ لم ينالوا حقهم من التقدير والتكريم، ومنهم من وقع ضحيةَ ظلمٍ متعمّد نتيجة لظروفٍ معينة مرت به، لم يكن له فيها خيار، فامتدت يَدُ العبثِ الظالمة إلى سيرته، فشوَّهتها إلى حدٍّ كاد يُخفي الحقيقةَ ويطمس معالمها.

وكان من بين هؤلاء الذين ظُلموا زُوراً وبهتاناً، أحد البارزين من حكام العرب والمسلمين، وهو الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي، الذي يُعتبر من أعظم حكام دولة الأغالبة التي قامت في إفريقية في أواخر القرن الثاني للهجرة (مطلع القرن التاسع للميلاد)، وامتدَّ عهدها إلى ما يزيد عن القرن حيث قضى عليها الفاطميون وأقاموا دولتهم على أنقاضها.

وقد حفظ لنا التاريخُ العديدَ من مآثر ومفاخر هذه الدولة التي وقفت تُصارعُ القوى المعادية في الداخل والخارج، وتبني بيدٍ، وتدافع باليد الأخرى عن ما حققته من إنجازات، وأعادت الهدوءَ والاستقرار إلى معظم أرجاء المغرب العربي الذي كان قد ساده الاضطرابُ منذ أواخر العصر الأموي، وازدادت حِدَّته في مطلع العصر العباسي حتى أقضَّ مضجع

الخلفاء العباسيين الأُوَل.

كما كان لها دور كبير في الحفاظ على عروبة المغرب وحماية منجزات حركةِ الفتوحاتِ العربية الإسلامية في نواحيه، وترسيخ أركان الإسلام في ربوعه، والإبقاء عليه نقيّاً من البدع، بعد أن أصبح المغربُ تربةً صالحة لها منذ أواخر العصر الأموي لبعدِهِ عن مركزِ الخلافة، ثم المضيّ قُدُماً في التبشير بهذا الدين الحنيف، وإيصال نورهِ إلى الشعوب الأوروبية التي كانت ترزحُ تحت وطأةِ ظلمة العصور الوسطى باستئنافِ حركة الفتوحات التي كانت قد فترت في الغرب، ثم الوقوف في وجه العدوّين اللدودين للإسلام والمسلمين، الإمبراطورية البزنطية، والحركة الصليبية، اللّذين كانا يعملان بكل ما أُوتيا من قوةٍ للقضاء على الإسلام في المغرب العربي، وإعادته إلى حظيرة المسيحية.

كان الأمير إبراهيم الثاني الحاكم التاسع من حكام هذه الدولة الأحد عشر، وقد تولى الحكم في وقت كان فيه الضعفُ قد سرى في جسدها، وتطرّق الفسادُ إلى أجهزتها، فاختلّت أوضاعها، فحارب هذا الفسادَ بكافة أشكاله، وأشاع العدلَ والطمأنينة، وأعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد، وبعث في الدولة روحاً جديدة بما قام به من إصلاحات شملت مختلف الأصعدة، فسطعت بجهودهِ شمسُ نهضةٍ شاملة في إفريقية كما يظهر ذلك بوضوح في هذه الدراسة.

وبدلاً من أن ترفعه أعمالُه الجليلة هذه إلى مصافّ حكام العرب والمسلمين العظام، إذا به يتعرضُ لحملةٍ ظالمة من النقد اللاذع والتشويه المتعمد شنَّها عليه دعاة الدولة الفاطمية، ومَنْ كان في خدمتها من المؤرِّخين، وحتى من نقل عنهم من المؤرخين اللاحقين، ليس للذنبٍ جناه، وإنما لأن حظّه العاثر شاء أنْ يشهدَ عهده وصول أبي عبدالله الشيعي

داعية الفاطميين الأكبر إلى إفريقية، والعمل منذئذٍ على الدعوة للفاطميين، فاستهلَّ نشاطه بنشر المزاعم والأباطيل التي تشوه هذا الأميرَ في نظر رعاياه لإثارتهم ضده وتأليبهم عليه، وبالتالي اجتذابهم لدعوته، وسار بقية دعاة الفاطميين على نهجه في شنِّ هذه الحرب الدعائية الجائرة.

ولكن الحقيقة مهما لفَّها الضباب، وأسدلت عليها الستائر والحجب لإخفائها، لا بدَّ لها من أن تظهر، وإنْ طال عليها الزمن، وهو ما حاولته في هذه الدراسة التي كنتُ قد أعددتها أصلاً كبحثٍ لينشر في إحدى المجلات العلمية وليس في كتابٍ مستقل، أقول: حاولتُ أن أصل فيها إلى الحقيقة التاريخية دون تعصب أو تحيز، فبدأتها بدراسة جهود هذا الأمير في مختلف الاتجاهات، وختمتها بتقييم شخصيته كما بدت لي في ضوء مقابلة الروايات التي أوردتها مختلفُ المصادر التاريخية التي تعرضت لسيرته.

والله ولي التوفيق

د. ممدوح حسين

مدخل تاريخي:

إفريقية بمدلولها التاريخي (تونس)، زمردة الغرب الإسلامي، وواسطة عقد أقطار المغرب العربي، قطعة من الجنة هي، لم يَعْدُ الحقيقةَ مَنْ وصَفَها بالخضراء، فمروجها تمتد وتمتد كبساط سندس لا نهائي حتى تعانقَ ذهب الشطوطِ في انسجامٍ نادر المثيل، ونسماتها الرقيقة المثقلة بأريج الزهور تداعب أفنان مغانيها بحنو فتميسُ معها كقدودِ الحورِ، وتبعثُ النشوةَ في الطيور فتنطلق مغرِّدةً في تسبيح متواصل شاكرة الخالق جلّ جلاله على ما وهب، ولجين جداولها الرقراقة ينساب عازفاً على دُرِّ حَصاها لحناً خالداً أعذب من أنغام الأوتار، وبحرها اللازوردي يصافحُ شطآنها الحالمة في مودة فيغرقان معاً في انسجام أبدي يسترجعان ما شهداهُ من حوادثَ على مَرِّ العصور، وجبالها الشماء التي تلثم السحب جبينها في إجلال وإكبار تقف شامخة وتأبى كأهلها الانحناء للعواطف في كبرياء، تتداخل الألوان في ربوعها وتتمازج في تناسقٍ فريدٍ فتشكل لوحةً فنية رائعة.

وأينما سار المرءُ في جنباتها صافح بصره آثار الأول، فيجول في خاطره ماضيها العريق الموغل في القدم، مقر امبراطوريات كانت، ومطمع غزاة، ومحط أنظار فاتحين، من فنيقيين، وقرطاجنيين، ورومان، ووندال، وبيزنطيين، تعاقبوا على أرضها، موجات منهم أتت وانحسرت، لفظت الغزاة الدخلاء واحتضنت المسالمين، وبقيت أبيّةً معطاءة تمتد يدها بالخير في مختلف الاتجاهات، وتشارك في بناء صرحِ حضارةِ البشريةِ بدورٍ فعال،

وتسهم في خير الإنسان بنصيب وافر.

حتى كان الفتح الإسلامي، فانتظمت في سلك البلاد التي أظَلَّها الإسلام بظله، ومع أن استقرارَ هذا الفتح فيها استغرق مدة طويلة نسبياً إذا ما قُورنت بالعديد من أقطار العالم الإسلامي نتيجة لمقاومة البيزنطيين أولاً، ثم لمؤامراتهم التي كانوا ينسجونها مع عملائهم فيها لاستمرار هذه المقاومة، إذ صعب عليهم فقدانها لأنها كانت في نظرهم إحدى كبريات الجواهر في تاج إمبراطورهم، إلا أنها منذ ذلك الاستقرار أصبحت مقر قيادة المغرب الإسلامي، تخرج منها جيوش الفتح لنشر رسالة الإسلام في أوروبا.

وكان من الطبيعي ما دام هذا هو وضعها أن تصبح من أكثر بلاد الإسلام تأثراً بمجريات الأمور في مركز الخلافة، فنظراً لإمكانياتها الوافرة وقدراتها الكبيرة، وبعدها نسبيا عن هذا المركز، وقرب عهد أهلها في الإسلام، أصبحت تربة صالحة للدعوات المناوئة للخلافة، فتعددت فيها الأهواء والأحزاب والمذاهب، وبالتالي كثرت فيها المشاكل والفتن والحركات الانفصالية منذ أواخر العصر الأموي، وزاد في حدة هذه الحركات بعد ذلك انشغال خلفاء بني العباس الأول عن الغرب بما واجهوه من متاعب في الشرق، الأمر الذي أبقى الوضع فيها يميل إلى عدم الاستقرار بالرغم من أن أولئك الخلفاء كانوا يتخيرون ولاتها من بين أكفأ رجالات دولتهم كالأمراء المهالبة وهرثمة بن أعين ونظرائهم، إلى أن أسند الرشيد ولايتها لإبراهيم بن الأغلب التميمي سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م فبدأ فيها مذ ذاك عهد جديد.

كان إبراهيم بن الأغلب يتمتع بشخصية قوية، وكفاءة إدارية عالية، وثقافة ممتازة، فضلا عن خبرة واسعة في شؤون إفريقية، فانعكس كل ذلك

على ولايته، فتتبع مثيري الفتن والفساد وقضى عليهم، ووضع الحلول للمشاكل التي استعصت على من سبقه، وامتدت يده بالإصلاح إلى مواضع الضعف والاختلال فاستقامت، وبعد أن مهد الأمور استأنف حركة الجهاد التي كانت قد فترت، ودفع بالحركة الحضارية فيها خطوات واسعة إلى الأمام، وبذلك أرسى قواعد دولة فتية تأخذ بأسباب القوة والرقي توارث حكمها بنوه وأحفاده من بعده.

وسار خلفاؤه على نهجه في بذل جهودهم في هذا الاتجاه، مما جعل الدولة الأغلبية تحتل صفحة مثيرة في تاريخ الإسلام وأمجاده في العصور الوسطى، فقد سجل شعب إفريقية في عهدها الذى زاد عن القرن (سنة ١٨٤هـ - ٢٩٦هـ / ٨٠٠م - ٩٠٩م) صفحة خالدة في تاريخ الجهاد والفتوحات الإسلامية، وأسهم بنصيب وافر في صنع الحضارة العربية الإسلامية ونشرها في الغرب الأوروبي، فكان أثرها في كلا الاتجاهين أعمق بكثير من أثر الدول المعاصرة لها في المغرب العربي، كدولة الأشراف الأدراسة في المغرب الأقصى ودولتي الخوارج المدرارية (الصفرية) في جنوبة، والرستمية (الإباضية) في المغرب الأوسط.

ويكفي هذه الدولة فخراً أنها كانت هي التي استأثرت بشرف فتح جزيرة صقلية، وبذرت فيها منذئذ بذرة الحضارة العربية الإسلامية المباركة، وتعهدتها بالعناية والرعاية حتى اشتد ساقها ثم آتت أكلها مما جعل من تلك الجزيرة مركزا هاما من مراكز هذه الحضارة، بل وأهم معبر لها إلى غرب أوروبا بعد الأندلس، وأما أرض إفريقية نفسها فقد شهدت في ذلك العصر نهضة فكرية وعلمية وأدبية وعمرانية وفنية واقتصادية واسعة النطاق، هي في حقيقة الأمر جزء هام من النهضة الإسلامية الشاملة التي ازدهرت في ربوع العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي).

وقد ساعد على هذة النهضة عوامل عديدة، أهمها أصالة الحضارة ورسوخها في إفريقية وعمق جذورها فيها، وقدرات شعبها وطاقاته الكبيرة المتعددة، وموقعها الجغرافي الهام الذى سهل لها الاتصال بغيرها في كافة الاتجاهات سلما وحربا لا سيما بالمراكز الحضارية على مر العصور، وكثرة خيراتها وطيب أرضها واعتدال مناخها، ثم الاهتمام البالغ لأمرائها الأغالبة ودون استثناء برعاية هذه النهضة على قدر ما واتت الظروف كلا منهم، فشجعوا العلماء والأدباء المتواجدين في دولتهم أو النازحين إليها بشتى الوسائل والأساليب.

ومن بين أمراء الأغالبة كان الأمير إبراهيم الثاني أكثرهم اهتماما بالنهوض بالحركة الحضارية في أفريقية وأعمقهم أثرا فيها، فبالرغم من الأخطار والمشاكل التي واجهها طوال سنيّ حكمه، بذل من الجهود في هذا الاتجاه، ما جعل هذه الحركة تنتقل نقلة كبيرة تبز فيها نظيراتها ليس في المغرب الإسلامي فحسب، وإنما أيضا في بعض أقطار المشرق، إلى حد أن عاصمته غدت صورة مصغرة لبغداد حاضرة الدنيا آنذاك، ومما يوضح أهمية هذه النقلة ويلقي مزيدا من الضوء على أبعادها أنها تمت بعد فترة ركود ملحوظ هي عهد سلفه أبي الغرانيق من ناحية، وأنها حدثت في وقت تعددت فيه المراكز الحضارية في شرق العالم الإسلامي وغربه، وليس ذلك فحسب، وإنما تعددت في القطر الواحد، ثم منافسة كل منها للمراكز الأخرى على مكانة الصدارة، مما يؤكد أنه لولا ضخامة هذه الجهود لما تمكنت إفريقية من الوصول إلى المكانة السامية التي تبوأتها بين هذه المراكز من ناحية ثانية.

وقد قام بالمقابل بجهود سياسة وإدارية وعسكرية كبيرة لا تقل أهمية عن جهوده في النهوض بالحركة الثقافية، والتي تمكن بها من إنقاذ الدولة

الأغلبية من الأخطار الداخلية والخارجية التي أحدقت بها وكادت أن تقضي عليها أكثر من مرة، فمنحها بذلك عمراً جديداً، كما أنه وفر لها ما كانت بحاجة ماسة إليه من الأمن والاستقرار، اللذين لولاهما لما كتب لجهوده الحضارية النجاح، وكلا هذين الأمرين يؤديان بنا إلى ضرورة التعرض لعهده بمزيد من البحث والدراسة لإلقاء قدر من الضوء على جوانب منه نرى أنها لم تحظ بما تستحقه من عناية الباحثين.

اعتلاء إبراهيم سدة الحكم:

تولى الأمير إبراهيم الثاني الحكم، والذي عرف في التاريخ بالأصغر تمييزاً له عن جده إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية، في جمادى الأولى سنة ٢٦١هـ / ٨٧٤م خلفا لأخيه محمد بن أحمد الملقب بأبي الغرانيق، فكان الحاكم التاسع من حكام هذه الدولة الأحد عشر، وتفيد الروايات التاريخية أن الدولة الأغلبية كانت وقتئذ قد أرهقتها المتاعب سواء في الداخل أو في الخارج، وتردت أوضاعها إلى حد بات ينذر بالخطر، وكان لأبي الغرانيق اليد الطولى في ذلك لانغماسه في اللهو والشراب والصيد وانشغاله بها عن أمور الدولة، فانتقضت عليه بعض الأقاليم مثل إقليم الزاب المتاخم للرستميين الذي شهد اضطرابات خطيرة خاصة بعد انتصار قبائل البربر المتمردة في بلاد هوارة على قائده أبي خفاجة محمد بن إسماعيل الذي كان قد أرسله إلى ذلك الإقليم على رأس جيش كبير لإعادة الاستقرار إلى ربوعه، وليس ذلك فحسب، وإنما نتيجة لذلك الانتصار بدأ خطر الاضطراب يهدد النواحي المجاورة.

وكانت صقلية وما يتبعها من أراض أوروبية تشهد وقتئذ أيضاً فتنة كبيرة بين العرب والبربر، مما أضعف موقف المسلمين فيها وشغلهم عن عدوهم الذي أخذ يستجمع قواه ويتأهب للانقضاض عليهم، أي أن ذلك لم يؤد

إلى خبو جذوة الجهاد في جنوب غرب أوروبا فحسب، وإنما يهدد الوجود الإسلامي ذاته في تلك المنطقة.

واحتدم الخلاف في إفريقية ذاتها بين فقهاء المالكية الذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى من علمائها ومركزهم الرئيسي القيروان بطبيعة الحال، والأحناف الذين كانوا قلة إلاّ أنهم يتمتعون بدعم الدولة التي اتخذت من الحنفية مذهبا رسميا لها أسوة بدار الخلافة، وزاد في هذا الخلاف موقف الفريقين من مقولة المعتزلة بخلق القرآن، ثم لم يلبث أن دب الخلاف بين تلاميذ الإمام سحنون من المالكية على مسألة الإيمان نتيجة لتأثير نظريات المعتزلة، وهكذا انقسم المالكية على أنفسهم إلى حزبين متنافسين (المحمدية أو السحنونية) نسبة إلى محمد بن سحنون الذى تزعمه (والعبدوسية) نسبة لابن عبدوس، وانبرى كل منهما للدفاع عن موقفه ويأخذ على الآخر المآخذ مما جعل هذا الخلاف يتطور إلى نزاع أكثر من مرة[1] لا يتوقف عند المناظرة والجدل الفكري بل يدخل العامة طرفاً فيه بين مؤيد ومعارض.

وخلت خزانة الدولة من الأموال بسبب إسراف أبي الغرانيق في العطايا والإنفاق على ملذاته، دون أن يهتم بتنمية موارد الدولة سواء بتشجيع التجارة والصناعة والزراعة لزيادة الخراج والعشور المتحصلة منها فضلاً عن مورد الغنائم لفتور حركة الجهاد، وقد بلغ من إسرافه أنه بسبب هوايته للصيد لقب بأبي الغرانيق لأنه كان يهوى صيد هذا النوع من الطيور، بنى قصراً في موضع السهلين خصيصاً ليخرج منه لصيدها أنفق فيه ثلاثين ألف

---

(١) انظر د. زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج ٢ ص ١٠٨ وما بعدها، كذلك القاضي عياض: تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك، تحقيق د. محمد الطالبي ص ١٨٤-١٨٥، الدباغ: معالم الإيمان ج ٢ ص ١٣٩ وما بعدها.

مثقال من الذهب[1]، وهو مبلغ عظيم بالنسبة لقيمة العملة في ذلك العصر، وهكذا بدد الأموال حتى أن الأمير إبراهيم حينما تولى الحكم لم يجد هو وإخوته في بيت المال شيئاً يذكر[2].

ومما زاد في سوء الوضع آنذاك، إصابته بمرض عضال عانى منه مدة طويلة قبيل وفاته حتى لقب بالميت[3]، فضلاً عن انتشار مجاعة كبرى في سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٣ أي قبل وفاته كانت من السوء والخطورة بحيث عمت المغرب العربي بل والمشرق أيضاً، وأعقبها انتشار طاعون جارف أودى بحياة آلاف البشر[4]، فكان لا بد في ظل هذه الأوضاع أن يختل الأمن، وينأى الاستقرار وتضطرب البلاد، ويكثر اللصوص وقطاع الطرق، وينتشر الفساد ليس في طول البلاد وعرضها فحسب، وإنما يتسرب أيضاً إلى أجهزة الدولة، وفي ذلك يقول ابن خلدون واصفاً عهد أبي الغرانيق: (وكان في أيامه حروب وفتن)[5].

وكان العالم الإسلامي في ذلك العصر قد فقد وحدته السياسية، وتمزق إلى دول متعددة، منها ما قام على دعوات مناهضة للخلافة العباسية وبالتالي كانت مناوئة لها مثل دولة الأشراف الأدارسة ودولتي الخوارج الأباضية والصفرية في المغرب العربي فضلاً عن دولة الأمويين التي قامت قبل ذلك في الأندلس، ومنها ما أنشأها مؤسسوها بحد سيوفهم، ولم يعد

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج١ ص ١١٦.
(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١١٤.
(٣) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١١٢.
(٤) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١١٦.
(٥) ابن خلدون: العبر ج٤ ص٢٠١، أنظر كذلك إبن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٥.

يربطها بالخلافة العباسية إلاّ تبعية اسمية، مثل الدولة الأغلبية نفسها في إفريقية، والدولة الطولونية في مصر وجزء من بلاد الشام، وأما الخلافة العباسية ذاتها فكانت قد دخلت في طور الاضمحلال في ظل نفوذ الأتراك، وحكام هكذا شأنهم اعتمدوا القوة في تأسيس دولهم وفي إدارتها، لم يكن يردعهم عن الاعتداء على جيرانهم لتوسعة دولهم تلك إلا القوة العسكرية.

وعلى ذلك، فإن دولة الأغالبة كانت محاطة بالخصوم الذين لم يتورعوا عن مهاجمتها إذا ما لمسوا فيها ضعفاً، لاسيما وأن قوة هؤلاء كانت وقتئذ آخذة في الازدياد، فدولة الرستميين كانت قد استردت عافيتها وازدهارها في عهد خليفتها (أفلح بن عبد الوهاب) (سنة ١٩٨هـ - ٢٤٧هـ/ ٧٨٤م - ٨٦١م)، وواصلت مسيرتها في هذا الاتجاه في عهد ابنه أبي بكر (سنة ٢٤٧هـ - ٢٦٠هـ/ ٨٦١م - ٨٧٣م)، وحفيده أبي اليقظان محمد بن أفلح (٢٦٠هـ - ٢٨١هـ/ ٨٧٣م - ٨٩٤م) بالرغم من بعض المعوقات الداخلية، وتدعمت أركان دولة أحمد بن طولون (سنة ٢٥٤هـ - ٢٧٠هـ/ ٨٦٨م - ٨٨٤م) في مصر والشام وليس ذلك فحسب، بل كان مما زاد الوضع سوءً بالنسبة للدولة الأغلبية هو أن الدولة البيزنطية الطامعة في صقلية وما يتبعها من أراضٍ أوروبية كانت تمر وقتئذ بفترة صحوة في ظل الأسرة المقدونية.

ونظراً لهذه الأسباب، كان الوضع يستدعي وجود رجل قوي في الحكم، يقود سفينة إفريقية إلى بر الأمان، ويبدو أن أهل القيروان بالذات كانوا يدركون تلك المخاطر، لذلك رفضوا تنصيب أبي عقال بن أبي الغرانيق أميراً عليهم خليفة لأبيه الذي كان قد أوصى له بالحكم من بعده لصغر سنة، وتوجهوا للأمير إبراهيم الذي كان وقتئذ والياً عليهم لأخيه

(لحسن سيرته وعدله)[1]، طالبين منه أن يخلع ابن أخيه الطفل ويتولى الإمارة بدلاً منه، فرفض ذلك تحرجاً من غصب ابن أخيه حقه، ومن العهود والمواثيق التي كان قد قطعها على نفسه لأخيه بأن لا ينازع ابنه الأمر، ولكن أهل القيروان ما زالوا به يراجعونه ويلحون عليه ويشيرون عليه بالمخرج للتحلل من تلك العهود حتى قبل، فنهضوا معه إلى العباسية مقر الإمارة وقتئذ وأدخلوه داره عنوة بعد أن تغلبوا على الحرس وبايعوه بالإمارة.

ويصور لنا ابن عذارى ما دار بينه وبينهم وقتئذ بقوله: (فلما مات أبو الغرانيق، أتى أهل القيروان إلى إبراهيم بن أحمد، وهو إذ ذاك وال على القيروان، فقالوا له: «قم، فادخل القصر[2]، فأنت الأمير؟» وكان إبراهيم قد أحسن السيرة فيهم، فقال لهم: «قد علمتم أن أخي قد عقد البيعة لابنه، واستحلفني خمسين يميناً ألاّ أنازع ولده ولا أدخل قصره». فقالوا له: «تكون أميراً في دارك بالقصر القديم، ولا تنازع ولده؟» فنحن كارهون لولايته ومبايعون لك؟ وليس في أعناقنا له بيعه؟» فركب من القيروان، ومعه أكثر أهلها، فحاربوا أهل القصر حتى دخل إبراهيم داره، فبايعه مشايخ أهل إفريقية ووجوهها، وبايعه جماعة بني الأغلب)[3]، ويردد كل من ابن الأثير[4]، وابن خلدون[5]، ولسان الدين بن الخطيب[6]رواية

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٦ ص٥، حوادث سنة ٢٦١هـ.

(٢) المقصود بالقصر هنا هو قصر مدينة العباسية القريبة من القيروان، مقر أمراء الأغلبية وقتئذ.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٦.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.

(٥) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣.

(٦) ابن الخطيب: أعمال الإعلام، القسم الثالث ص٢٧.

مشابهه لهذه الرواية عن كيفية وصوله للحكم.

إفريقية في ظل عهد جديد:

وهكذا آلت الإمارة لإبراهيم بن أحمد برغبة شعبية كما يستفاد من هذه الروايات، دون سعي منه أو تدبير، وقد حكم ما يزيد عن الثمانية وعشرين عاما (سنة ٢٦١هـ - ٢٨٩هـ/ ٨٧٥م - ٩٠٢م)، وهي أطول عهود أمراء الأغالبة، وما يلاحظه الباحث، أنه بالرغم من بعض المعوقات فإن هذا العهد كان بعثاً جديداً لطاقات إفريقية بعد خبو طويل، إذ استأنفت خلاله عجلة الحياة دورتها بقوة ونشاط، مما جعله يتميز عن غيره من عهود باقي الأمراء من آل بيته، بما ظهر فيه من نهضة شاملة في شتى الاتجاهات، مما يجعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه كان العصر الذهبي للحركة الحضارية في إفريقية الأغلبية فضلاً عن الأعمال الجليلة الأخرى التي تمت فيه.

وقد وضع الأمير إبراهيم نصب عينيه طوال مدة حكمه، الحفاظ على سلامة دولته وتطويرها وبث روح التجديد فيها لتدعيم أركانها ومدها بكل أسباب الرقي والتقدم، والعمل على أمن رعيته واستقرارها ورفاهيتها بكل ما أوتي من قدرات، ومع أنه لقي في سبيل ذلك معارضة قوية من كافة القوى التي تضررت مصالحها بأعماله الإصلاحية، إلاّ أن ذلك لم يزده إلاّ عزماً وتصميماً على المضي قدماً في تنفيذها، ويبدو أنه اتبع أولاًسياسة اللين والحسنى، ولما لم تؤد تلك السياسة إلى النتيجة التي كان ينشدها، وجد في الحزم الذي كان يصل أحياناً إلى حد العنف والقسوة وسيلة أفضل فاتبعها.

ولتتضح أبعاد هذه الصورة، نرى أنه لا بد من التعرض بإيجاز لما

واجهه الأمير إبراهيم من مشاكل ومتاعب داخلية وخارجية خلال سني حكمه، تكالبت عليه حتى عصفت بدولته أكثر من مرة، والتي كان لها بلا شك أثرها القوي على جهوده، فجعلته يبدو وكأنه يبني بيد ويدافع باليد الأخرى عما بناه، وهو جهد ضخم لا يقدر على بذله والنهوض بأعبائه إلاّ عظماء الرجال الذين يصنعون التاريخ.

متاعب إبراهيم الثاني:

كان على الأمير إبراهيم أن يعمل أولاً وقبل كل شيء على إزالة آثار المجاعة والوباء اللذين أظلا إفريقية قبيل توليه الحكم، فقد كانا من الحدة بحيث أصابا اقتصادها بضرر كبير فضلاً عن الأمراض الاجتماعية تركاها، فكان رفقه بالرعية ومحاربته أهل البغي والفساد، ونشره العدل كما سيأتي ذكره هو العلاج الفعال لهذا الموضوع، والذي بسببه لم يلبث الناس أن تجاوزوا هذه المحنة.

وفي سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٧م أي بعد توليه الحكم بمدة تقل عن الثلاث سنوات، واجه ثورة خطيرة هي ثورة موالي الأغالبة في القصر القديم (العباسية) المقر السابق لأمراء الأغالبة إثر انتقاله مع خواصه ودواوين دولته إلى عاصمته الجديدة (رقادة) كما سيذكر في موضعه، والذين ساءهم على ما يبدو هذا الانتقال، فسرت بينهم روح التذمر، وسرعان ما تحول هذا التذمر إلى تمرد، مما جعل الأمير يسارع إلى معالجته، فقبض على زعيم المتمردين وهو فتى صقلبي يسمى مطروحاً (ابن أم بادر) ومن المرجح أن يكون قد أمر بإعدامه، فغضب هؤلاء الموالي الذين كانوا جميعاً من الجند الصقالبة، وأعلنوا العصيان في انتفاضة خطيرة، وليس ذلك فحسب، وإنما أخذوا يعيثون الفساد حتى قطعوا السابلة بين القيروان ورقادة، ومع أن أهل القيروان كانوا هم الذين خرجوا لقتالهم في عدد غفير دفاعاً عن

مصالحهم، وانتصروا عليهم حتى اضطروهم للاستسلام على الأمان، إلاّ أنه كان لا بد للأمير من فرض هيبة الدولة لينعم الجميع في ظلها بالأمن والاستقرار بدلاً من تصارع فئات الرعية الذي يؤدي حتماً إلى خراب البلاد، فقبض على العديد من المتمردين، وقتل بعضهم وسجن بعضاً آخر، كما نفى فريقاً منهم إلى صقلية، وبذلك عاد الأمن إلى نصابه[1].

وفي العالم التالي (سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م) دهمه خطر جديد آت من الشرق هو هجوم العباس بن أحمد طولون على الإقليم الشرقي من دولته، والذي كان قد ترك مصر إلى برقة مغاضباً لوالده وفي نيته تأسيس إمارة له فيها ويضيف ما يمكن إضافته إليها من أراضي الدولة الأغلبية، وعلى ذلك، ما كاد يحكم سيطرته على برقة حتى زحف بجيشه نحو طرابلس، الأمر الذي جعل الأمير إبراهيم يسارع إلى إرسال قائده أحمد بن قرهب - أخي الحاجب محمد بن قرهب - في (١٦٠٠) فارس جريدة عاجلة لملاقاة الطولوني ومشاغلته ريثما يفرغ هو من إعداد القوات الكافية لمواجهة هذا الخطر.

ولم تصمد هذه الجريدة أمام الطولونيين حينما التقى الجمعان في وادي ورداسة بالقرب من لبده، فانهزمت إلى طرابلس، مما جعل العباس يحتل لبده ويواصل زحفه إلى طرابلس التى تحصن فيها ابن قرهب ويحاصرها[2] واستنجد ابن قرهب بالأمير إبراهيم، فأرسل إليه نجدة مستعجلة أخرى، في حين أخذ هو يستعد للزحف بالجيش الرئيسي، وتقول بعض المصادر أنه

---

(١) انظر عن ذلك النويري: نهاية الأرب ج٢٢ ورقة١١٨أ، كذلك ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٧، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١١٩.

(٢) انظر ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣.

حين لم يجد لديه من المال لإعداد الجيش بعد أن كان استنفده أبو الغرانيق كما تقدم ذكره، اضطر إلى سك حليّ نسائه دنانير[1] لهذا الغرض، وتنكشف هذه الغمة عن الأمير بتدخل إلياس بن منصور زعيم أباضية نفوسة الذي استنجد به أهل طرابلس، فخف بجموعه لنجدتهم مما اضطر العباس لفك الحصار عن المدينة والانسحاب إلى برقة ثم العودة منها إلى مصر بعد تهديد للدولة الأغلبية دام أكثر من عامين[2].

وصاحب التهديد الطولوني مشكلة ثانية واجهت الأمير إبراهيم هي قحط عظيم جديد أصيبت به إفريقية في عام ٢٦٦هـ / ٨٧٩م، وكانت آثار القحط الأول بالكاد قد محيت، إذيقول ابن عذارى في حوادث هذه السنة: وفيها (كان القحط العظيم والغلاء المفرط بإفريقية)[3]، مما أجهد الناس بما أصابهم من مجاعة عمت مختلف فئاتهم حتى أكلوا الجلود والجيف، وبما تفشى بينهم من الأمراض والأوبئة التي كثيرا ما تتبع المجاعات، الأمر الذي اضطر العديد منهم إلى مغادرة البلاد وبصفة خاصة إلى صقلية ريثما تنكشف هذه الغمة.

وما كاد الأمير إبراهيم يلتقط أنفاسه من هذه المشاكل والأخطار، حتى نشبت ثورة عارمة في إقليم الزاب أشعلتها قبائل وزداجه وهوارة ولواتة، فسرح إليها جيشاً بقيادة ابن قرهب، الذي اشتبك مع الثوار في أكثر من

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٩.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣، ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٢١، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٢٠ وما بعدها.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٧، انظر كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٢٦.

موقعة وحقق عدة انتصارات، إلى أن كبا به جواده في معركة مع اللواتيين فلحق هؤلاء به وقتلوه، فتفرق جنده لائذين بالفرار، فكان أن أرسل الأمير ابنه عبد الله على رأس جيش كبير تمكن بعد معارك طاحنة من إخماد هذه الثورة في سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٢م وإعادة الهدوء إلى ذلك الإقليم بعد استنزاف كبير للطاقات والأموال[١].

وفي سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م واجه الهجمة البيزنطية الشرسة على صقلية بقيادة نقفور فوكاس والتي ظل خطرها جاثماً على مسلمي الجزيرة مدة تقارب العشر سنوات كما سيأتي ذكره. وكان لهذا الوضع خطورته البالغة تتضح إذا ما أعدنا إلى الأذهان أنه كان على الأمير إبراهيم مواجهته بقدراته الذاتيه دون انتظار عون من أحد، والدولة العباسية كانت وقتئذ أعجز من أن تمده بمثل هذا العون، فضلاً عن توتر العلاقات بينه وبين الطولونيين في مصر ومثل ذلك بالنسبة لأمويي الأندلس بطبيعة الحال، وفتورها مع الدولة الرشمية، هذا إذا لم يحاول أحد خصومه انتهاز هذه الفرصة للانقضاض على إفريقية نفسها.

وفي سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م قوبل إصلاحه المالي المتعلق بنظام النقد، والذي سنتعرض له في موضعه بمعارضة قوية وبصفة خاصة من أهل القيروان، فأغلقت الأسواق فيها وعمها الشغب، وكاد أن يتطور ذلك الشغب إلى فتنة كبيرة لولا أنه تدارك الأمر بحكمته وحسن تصرفه، وبعد جهد تمكن من تهدئة الوضع، والقضاء على الفتنة في مهدها، وتم له ما أراد من إصلاح.

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣ ابن أبي الضياف: اتحاف الزمان ج١ ص ١٤٣، د. سعد زغلول عبد الحميد المرجع السابق ج٢ ص ١٢٧ وما بعدها.

وفي سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م انتقضت عليه بلاد عديدة، وكثر الخارجون عليه، فثارت تونس والجزيرة وصطفورة والأربس وباجه وقمودة، وقدم أهاليها على أنفسهم رجالا من الجند(فصارت إفريقية عليه نارا موقدة، ولم يبق بيده من أعمالها إلا الساحل والشرق إلى طرابلس)[١]. فلم يوهن ذلك من عزيمته، بل شرع في إعداد العدة لمواجهة هذه الأخطار، فزاد في تحصينات رقادة بأن حفر حولها خندقا وجعل أبوابها من الحديد، ونظم عملية الدفاع عنها بما ضم إليه فيها من الثقات وحرسه من العبيد السود احترازاً من مفاجأة أحد خصومه، ثم باشر في إعداد جيش كبير، وعمل في أثناء ذلك بنصيحة أحد شيوخ بني عامر بن نافع بالتمهل في مهاجمة الثوار والسعي في تفريق كلمتهم، وما أن تم له ما أراد من أحكام التدبير، حتى أنفذ جيشه بقيادة ميمون الحبشي الذي تمكن من إخماد هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى وإعادة الهدوء إلى ربوع إفريقية من جديد[٢]، ثم أتبع الأمير ذلك بخطوة أخرى لها أهميتها هي تولية أبنائه على مختلف أقاليمها[٣]. لتعزيز موقفه وتدعيم أركان هذا الهدوء، وحينما ثارت عليه تونس من جديد في سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م قمع ثورتها ثم انتقل إليها وسكنها بعض الوقت حتى استقر بها الوضع.

وفي سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م شعر بتململ في الأقاليم الشرقية لدولته،

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٣، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣ د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٣٦.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٣، وما بعدها، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣، ابن أبي الضياف: المصدر السابق ج١ ص١٤٦، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٢٦ وما بعدها.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٣، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣ د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٢٦.

فتوجس أن يكون ذلك مقدمة لخطر جديد يحركه الطولونيون أو على الأقل يشجعون عليه، فخرج بجيش قوامه عشرون ألف جندي متجهاً إلى برقة، إلاّ أن أباضية نفوسة اعترضوا طريقه دون سبب واضح اللهم إلاّ إذا كان ذلك بسبب شدة وطأته في قمع ثورات الأقاليم الغربية والتي كان من بين مشعليها قبائل أباضية مثل هوارة وأهل الزاب، مما جعل إخوانهم في جبل نفوسة يهبون لكسر شوكة الأمير الأغلبي مؤازرة وثأراً لهم، وأياً كان الأمر، فإن حرباً طاحنة دارت بين الفريقين، كانت من الشدة بحيث أحفظت الأمير على خصومه مما جعله يقسو عليهم بعد انتصاره عليهم. ثم استأنف زحفه بعد ذلك حتى انتهى إلى سرت، وكان يعتزم مواصلة سيره إلى برقة، إلاّ أن جنوده الذين كان قد أنهكهم قتال الأباضية والسفر الطويل أخذوا ينفضون من حوله الأمر الذي اضطره للعودة[1]، ولكن ليس قبل أن اطمأن على استقرار الوضع في تلك الأقاليم.

وفي تلك الأثناء أخذ خطر الدعوة الفاطمية يلوح في الأفق، ذلك أن إيقاع الأمير إبراهيم برجال قلعة بلزمة جنوب غرب باغاية بإقليم الزاب في سنة ٢٨٠هـ / ٨٩٣م كان له أثر مباشر في ذلك الموضوع، إذ أن هؤلاء كانوا من أبناء العرب والجند الذين قدموا إلى إفريقية منذ الفتح، وكان معظمهم من القيسية أي من أقرباء عصبية الأغالبة بني تميم، وكانوا قبل ذلك يتمتعون على ما يبدو بنوع من الاستقلال عن أمراء الأغالبة في ذلك الإقليم الذي طالما شهد الاضطرابات لبعده عن مركز الدولة ومتاخمته للرستميين، وكانوا من موقعهم الاستراتيجي على السفح الشمالي لأوراس يبسطون نفوذهم على قبائل كتامة بل ويذلون تلك القبائل، ويتخذونها خولاً

---

(1) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٢٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣ د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابع ج٢ ص١٢٦ وما بعدها.

وعبيداً ويفرضون عليها العشور والصدقات على حد تعبير النويري[1].

وحينما أخذ الأمير إبراهيم في محاربة الثوار في ذلك الإقليم ضغط عليهم وجردهم من إمتيازاتهم تثبيتاً لهيبة الدولة، مما حفزهم على التمرد، الأمر الذي دفعه لحربهم في سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، ولما امتنعوا منه لجأ إلى الحيلة معهم، فأخذ يلاطفهم ويقربهم من نفسه حتى استجاب زعماؤهم إلى ما دعاهم إليه من الوفود عليه في رقادة، وكان مجموع ما وفد عليه منهم ألف رجل فأكرمهم في البداية ثم أوقع بهم بعد ذلك في سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م دون أن تذكر الروايات التاريخية لذلك سبباً، فكسرت شوكتهم نتيجة لذلك، وخفت شدة وطأتهم على قبائل كتامة التي كان أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين قد استقر بين ظهرانيها، فلم تعد هنالك من قوة تقف في وجهها، مما أدى إلى نجاح الدعوة الفاطمية في تلك النواحي، وبالتالي يصبح ذلك نقطة البداية لتهديدها الحقيقي لدولة الأغالبة[2].

وكان مما زاد في حدة المشاكل والأخطار التي واجهها الأمير إبراهيم في تلك الآونة، وصول رسول الخليفة المعتضد بالله العباسي إليه بكتاب يلومه فيه على شدته في قمع ثورة أهل تونس، ويأمره فيه بالرفق بالرعية ويحذره من مغبة هذه الشدة، ويهدده بالعزل إن لم يقلع عنها، إذ يقول فيه: (. . . إن انتهيت عن أخلاقك هذه، وإلا فسلّم العمل الذي بيدك لابن عمك محمد بن زيادة الله)[3]، ومن غير المستبعد أن يكون قد نبهه إلى

---

(١) النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١١٩ أ.

(٢) انظر النويري: المصدر السابق ج٢ ص١١٩ أ، ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٣، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٣٤.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٤٦.

خطر الدعوة الفاطمية المتزايد، إذ كانت (نار الداعي إلى الدولة العلوية العبيدية تأكل في أطراف مملكته)[1]، وأن يكون أمره بتوجيه جل اهتمامه لمواجهته والقضاء عليه،نظراً لما كان يشعر به العباسيون من قلق بشأنه، إذ يقول ابن أبي الضياف في ذلك: (وقد قوي أمر بني عبيد، وهال بني العباس)[2].

وفي أعقاب ذلك، وفي سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٨م على وجه التحديد، احتدمت المشاكل والفتن في صقلية من جديد كما سيأتي ذكره، والتي استنفد إطفاء نارها جهدا كبيرا من الأمير، وبقيت الأوضاع غير مستقرة في الجزيرة مذ ذاك، ولم تهدأ تماما إلا برحيله إليها غازيا في سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢م كما سيأتي ذكره أيضا. وكانت ثالثة الأثافي هي عدم تمكنه من القضاء على الدعوة الفاطمية التي كان قد استفحل خطرها وقتئذ.

وهكذا نخلص من هذا العرض الموجز لمتاعب الأمير إبراهيم التي لم نشأ تفصيلها حتى لا نخرج عن خطة البحث، بأنه كان طوال مدة حكمه ما يكاد يتغلب على صعوبة منها حتى يدهمه خطر جديد، ومع ذلك، وبالرغم من خطورة هذه المتاعب وآثارها السلبية على الوضع السياسي في إفريقية، والتي منها ما كان سببه أخطاء تراكمت من عهود سابقة على عهده وقدر لها أن تنفجر في زمنه، فإنها لم تصرفه عن رعاية الحركة الحضارية في بلاده وتنشيطها، وعن مواصلة حركة الجهاد في جنوب غرب أوروبا، مما جعله يحقق في كلا الاتجاهين إنجازات ضخمة لا تعتبر مفخرة له وحده فحسب، وإنما أيضا لإفريقية الأغلبية بل وللمسلمين جميعا، فضلا عن أنها تقدم البرهان الواضح على أنه لو لم يكن من كبار الرجال، لكان أي خطر

---

(١) ابن ابي الضياف: المصدر السابق ج١ ص١٤٦.

(٢) ابن أبي الضياف: المصدر السابق ج١ ص١٤٦.

منها يكفي لشغله عن بذل أي مجهود في هذين الاتجاهين بل وربما للإطاحة به ودفعه إلى زوايا النسيان. ولعل فيما نورده فيما يلي ما يكفي لتأكيد هذه الحقيقة.

إصلاحاته المالية والإدارية:

تفيد المصادر التاريخية أن الأمير إبراهيم شن منذ توليه الحكم حملة كبرى على الظلم والبغي والفساد التي كانت قد انتشرت في البلاد، وأخذت تنخر في أجهزة الدولة وبنية المجتمع، وقطع دابر اللصوصية، واشتدت وطأته على المفسدين وقطاع الطرق والعابثين بالأمن فأوقع بهم العقوبات الرادعة، حتى استتب الأمن، فاطمأن الناس على أرواحهم وممتلكاتهم، وفي ذلك يقول ابن الأثير: (...آمن البلاد وقتل أهل البغي والفساد... وكان القوافل والتجار يسيرون في الطرق آمنين)[1]. ولا يخفى علينا ما لاستتباب الأمن من دور في حياة أي شعب ونهضته.

كما حرص مذ ذاك على بث روح التطوير والتجديد في كافة أجهزة الدولة لتماثل مثيلاتها في دار الخلافة ليتسنى لها تلبية متطلبات العصر، مع بقائها في الإطار الذي حدده الشرع الإسلامي. ومن أول ما يذكر في هذا المجال محاربة قاضيه ابن طالب التعامل بالربا الذي كان قد شاع بين الناس: وكان أكثر المتعاملين به من اليهود[2]، إذ وقف عائقا في سبيل انطلاق الحركة الاقتصادية التي كانت وقتئذ قد استأنفت نشاطها وازدهرت إلى حد أن القيروان أصبحت مركزها الرئيسي في غرب العالم الإسلامي

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.

(٢) المالكي: رياض النفوس ج١ ص٣٧٧، انظر كذلك د. الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ / ٩-١٠م) ص٥٥.

كما سيأتي ذكره، ونجحت جهود ابن طالب في القضاء على هذا التعامل، مما أعاد حركة المال إلى مسارها الصحيح بتوظيفه في التجارة والصناعة والزراعة.

كما فرض ابن طالب أيضاً رقابة صارمة على الصيارفة، وكان هؤلاء من الكثرة وقتئذ بحيث كان لهم سوق في القيروان خاص بهم، وقد تعددت نشاطاتهم، فكانوا يقومون بأعمال مالية كثيرة ومتشعبة لم تقتصر على تبديل العملة وصرف الدنانير إلى دراهم، وإنما تعدتها إلى أعمال مصرفية أخرى تقوم بها المصارف (البنوك) في عصرنا الحاضر من حفظ لأموال المودعين واقراض وعمليات تحويل، ومع أن بعض النصوص التاريخية تشير إلى وجود بعضها قبيل عهد الأمير إبراهيم، فيذكر القاضي عياض مثلاً أن محمد بن سحنون كتب رقعة لرجل أراد إعانته إلى صيرفي بعشرين ديناراً[1]. إلاّ أن عهده شهد توسعاً وتنوعاً فيها لتفي بمتطلبات الحركة الاقتصادية النشطة، الأمر الذي استدعى ضرورة تنظيمها لما صاحب ذلك التوسع والتنوع من تلاعب وتحيل لإيجاد منفذ للتعامل بالربا إلى حد أن هؤلاء فضلا عن بعض التجار كانوا يستغلون الخلاف الفقهي بين مدرستي المدينة (المالكية) والعراق (الحنفية) الفقهيتين لصالحهم لإضفاء صفة الشرعية على معاملات تجارية متأثرة بالعرف والتقاليد التجارية القديمة أو المعمول بها خارج العالم الإسلامي[2]. لذلك، أجبر ابن طالب الصيارفة

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص١٨٢، وانظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٧٨.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٥٧و٥٨.

ومن ذلك ما يرويه الدباغ عن أحمد الربعي الصواف المذكور في الصفحة التالية والذي كان أحد كبار فقهاء المالكية في القيروان حيث يقول: (فأتى إليّ رجلان منهم [يعني الصيارفة] فسألاني عن مسألة فقلت لهما: «لا تحل، فإنه ربا» فقالا =

على دراسة (كتاب الصرف) الذي ألفه الإمام سحنون للاستنارة به في عملهم، مما جعل هؤلاء يلجأون إلى أحمد الربعي الصواف أحد تلاميذ هذا الإمام ليدرسوه عليه حتى امتلأ بهم صحن مسجده[1]، والذي قال في ذلك (فقرأته لهم قراءة تبين لما دلّ عليه من المعاني)[2]، وكان الهدف كله هو أن يصبح نشاط أعمال الصيرفة دعامة للاقتصاد وليس وبالاً عليه.

وفي سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م قام الأمير إبراهيم بإصلاح مالي كبير كان له أهميته في تخليص نظام النقد مما لحق به من شوائب ودعم الثقة به، ذلك أنه بالرغم من أن أسلافه من الأمراء اهتموا بالمحافظة على قوة نقدهم وجودته فحافظ دينارهم الذهبي على وزنه الذي كان ٤ر٢٠ غراما أو ٤ر٢٥ غراما وصرفه عشرة دراهم، وفي الدرهم ١٦خروبة، إلا أن ضرب قطع نقدية صغيرة قبل عهده كربع الدرهم وثمن الدرهم وتعامل الناس بها على نطاق واسع، أوجد مجالا للغش والزيف فيها فوجد الدرهم الجيد والدرهم الستوق أي الزائف من النحاس ومثل ذلك بالنسبة للقطع النقدية الصغيرة التي كان

لي: «فإن ابن الأشج [فقيه حنفي سيأتي ذكره] قال لنا: أديروا بينكم ما شئتم من بيع حرام، ثم تعالوا إليّ أجعله لكم حلالاً» فقلت لهم: «لا حول قوة إلاّ بالله، حرام، حرام، قُوما عني») الدباغ: معالم الإيمان ج٢ ص٢٣٢.

وقد ذكر المالكي (ج١ ص٤٠٨) أن الأشج هذا كان اذا أراد أن يجوز الربا بين اثنين من الناس يقول لأحدهما: خذ هراً فاجعل في عنقه خمسين ديناراً، ومعه بمائة إلى أجل، فإذا أخذ الهر المشترى له: وأقام عنده أياماً فامض إليه وقل: «عسى ذلك الهر ترده إلينا فإن الفيران قد أكلونا» فيرده إليه فكان هذا فعله مع الناس).

(١) الدباغ: المصدر السابق ج٢ ص٢٣٢ انظر أيضاً د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٥٦.

(٢) الدباغ: المصدر السابق ج٢ ص٢٣٢.

مجال الغش فيها أكبر، مما جعل الناس يتعاملون بها بالوزن وليس بالصرف لقلة الثقه بها، الأمر الذي أشاع الفوضى في عمليات البيع والشراء وبالتالي كان لذلك أثره السلبي الواضح على نظام النقد، ومن هنا ظهرت حاجة ملحة لإصلاحه، فضرب الأمير إبراهيم عملة جديدة دنانير ذهبية ودراهم فضية صحيحة الوزن، صرف كل دينار منها عشرة دراهم لذلك سميت (بالعاشرية)، وقطع التعامل بالقطع النقدية الصغيرة، ومع أن العامة وبصفة خاصة في القيروان عارضت هذا الإصلاح، فأغلقت الأسواق فيها وعم الشغب أرجاءها، حتى تطور الأمر إلى ما عرف في التاريخ بـ(ثورة الدراهم)، إلا أن الأمير تمكن بحسن تدبيره وحكمته من القضاء عليها ونجح في هذا الإصلاح[1]. كما تقدم ذكره.

وتذكر المصادر التاريخية أن الأمير إبراهيم أجرى تعديلات في نظام جباية الضرائب، فقد أمر بجباية الخراج حصة مما تنتجه الأرض بدلا من تحصيله نقدا كما كان معمولا به منذ عهد الأمير عبد الله الأول. ذلك أن الأمير عبدالله المذكور رسم في سنة ١٩٧هـ / ٨١٣م أن يقطع تحصيله عينا ويجعل بدلا نقديا ثابتا يدفع عن الأرض سواء جادت أو أجدبت. وتختلف المصادر في تحديد قيمة هذا البدل، فما يفهم من رواية ابن عذارى أنه كان ثمانية دنانير على كل قفيز من البذر[2]، ويذكر هوبكنز نقلاً عن النويري أنه كان ثمانية دنانير على كل زوج يحرث وأنه عهد بجبايتها إلى صاحب

---

(١) انظر عن ذلك ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢١ وما بعدها، ابن أبي الضياف المصدر السابق ج١ ص١٤٢، حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٤٣٢، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٢٨ وما بعدها، دكتور الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ج١ ص٩٥.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج ١ ص٩٥.

الخراج[1]، وأما ابن الأثير فيقول أنه كان ثمانية عشر ديناراً على كل فدان[2]، وبصرف النظر عن التفاوت بين هذه الروايات في تحديده، فإن هذا الإجراء مع أهمية دوره في استقرار ميزانية الدولة لثبات مورد الخراج الذي يمثل دعامة رئيسية لها دون أن يتأثر بالظروف، إلا أنه كان يلحق الضرر بالمزارعين. إذ كان عليهم الالتزام بدفع ما فرض عليهم من مبالغ بصرف النظر عن حالة الموسم الفلاحي، الأمر الذي أدى إلى تذمرهم، مما دفع الزاهد حفص بن الجزري إلى مراجعة الأمير عبدالله لإلغائه، إلا أنه فشل في ذلك، وبقي معمولاً به حتى عهد الأمير إبراهيم الذي ألغاه وجعل جباية الخراج وفق ما يقتضيه الشرع الإسلامي، وبذلك أزاح عن الرعية عبئاً طالما أثقل كاهلها[3].

وأتبع ذلك بخطوة هامة أخرى هي إلغاؤه مجموعة الضرائب المعروفة وقتئذ بالقبالات، وهي كما يعرفها هوبكنز[4] الضرائب المفروضة على السلع الاستهلاكية أي التي يمكن تسميتها بضرائب السلع أو السوق. والتي كانت تدفع حينما تباع تلك السلع للاستهلاك أو في نقطة في سلسلة التوزيع قريبة من المستهلك، وكانت تجبى حسب نظام الالتزام أو الضمان، أي أن يتعهد أحد الأشخاص بمبلغ معين يؤديه لخزينة الدولة سنوياً ويتولى هو عملية تحصيل هذه الضرائب. وما زاد يكون ربحاً خالصاً له. وهو نظام له

---

(١) ج. ب. هوبكنز: النظم الإسلامية في المغرب الوسطى، تعريب د. أمين توفيق الطيبي ص٩٧.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٢٣.

(٣) هوبكنز: المرجع السابق ص٩٧ وما بعدها، شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية ج٢ ص٦٩. د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص ٨٠ وما بعدها.

(٤) هوبكنز: المرجع السابق ص ٩٤ وما بعدها، انظر كذلك شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٩.

خطورته إبان عهود الاختلال والفساد، إذ يجني الملتزم مبالغ طائلة دون محاسب أو رقيب يقع العبء في ذلك على الرعية، ولو أخذنا في الاعتبار ما قدره الدكتور الحبيب الجنحاني من أن قيمة الضريبة الموظفة على القوافل الداخلة إلى القيروان والخارجة منها فقط في كل باب من أبوابها الخمسة وحدها هي ستة وعشرون ألف درهم يومياً[1]، لقدم ذلك فكرة تقريبية عن ضخامة المبالغ المحصلة من هذه الضرائب، وبالتالي أهمية هذه الخطوة التي قام بها الأمير إبراهيم في إصلاح نظام الضرائب. ومع أن بعض المؤرخين القدامى والمحدثين، يعزو هذه الاجراءات لدافع سياسي هو استمالة الرعية إلى جانبه عند استفحال خطر الدعوة الفاطمية[2]. إلا أن ذلك لا يقلل من قيمة هذا الإصلاح وأهميته في إنعاش الاقتصاد ورخاء الرعية.

وإذا كان أمراء الأغالبة بوجه عام حرصوا على تنظيم الجهاز الإداري في دولتهم تنظيماً محكماً على نحو ما وجد في بغداد[3]، فإن الأمير إبراهيم كان من أكثرهم حرصاً على ذلك، إذ عمل منذ مطلع عهده على إصلاح هذا الجهاز وتطهيره مما تطرق إليه من فساد، وتدعيمه بذوي الكفاءة العالية سواء من العرب أو غيرهم، ومن المسلمين أو من أهل الذمة، وسواء كانوا من أهل البلاد أو من الذين اجتذبهم بلاطه من خارجها. كل ذلك للنهوض بمستواه وتطويره.

فهو وجرياً على سنة كبار الحكام من مؤسسي الدول، أنشأ عاصمته الجديدة رقادة التي سنتعرض لذكرها فيما بعد، ونقل إليها معه دواوين

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص ٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر مثلاً ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٣١، كذلك هوبكنز: المرجع السابق ص٩٨.

(٣) انظر شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٧.

الحكومة والتي كان من أهمها ديوان الرسائل (الإنشاء)، وديوان الخاتم (الختم)، وديوان الخراج (الجباية) وديوان الجند (العطاء) وبذل جهوداً كبيرة في سبيل تحديد صلاحيات كل منها بعد أن كانت سمة العصر هي تداخل السلطات تداخلاً خطيراً[1]، وأسند مهمة إدارة كل منهما إلى أحد رجالاته الأكفاء مثل أبي اليسر الشيباني الذي تولى رئاسة ديوان الإنشاء بالإضافة إلى رئاسة جامعة بيت الحكمة كما سيأتي ذكره، وسواده النصراني الذي كان شخصية مرموقة في الإدارة المالية ونظرائهما، كما أعاد النظر في الهيئات الإدارية في مختلف أقاليم الدولة، وعين أحد أبنائه أو ثقاته عاملاً على كل إقليم، ومنحهم سلطات واسعة لتتاح لهم حرية الحركة والقدرة الكبيرة على مواجهة ما يستجد من ظروف في الوقت المناسب، ولكن تحت رقابته المباشرة.

وكان من بين ما تضمنته إصلاحاته الإدارية أيضاً وضع الوظائف الرئيسية في الدولة في إطارها الصحيح بعد تراجع حاد في مكانة بعضها، وعدم تحديد معالم بعض آخر، ومن ذلك وظيفة الوزير التي كانت من قبل ذات أهمية ضئيلة، وكثيراً ما كان لقب وزير لا يعدو لقباً تشريفياً، ويعزو هوبكنز ذلك إلى سببين رئيسيين هما: كفاءة العديد من الأمراء وبالتالي اعتمادهم على أنفسهم في إدارة الدولة إلى حد بعيد، ثم تجنب إثارة الخلافة عليهم، إذ كان تعيين الوزراء امتيازاً تقليدياً لها، أي إنه من السمات الخاصة بالدولة المستقلة وهي صفة لا تنطبق على دولتهم لأنهم كانوا ولاة للعباسيين من وجهة النظر الرسمية. وبالتالي فإن مثل هذا التعيين يمكن أن يعتبر بأنه يشكل عنصر منافسة للخلافة[2]، ومع ذلك فقد كان

---

(١) انظر شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٨.

(٢) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص٣٧، كذلك شارل أندري جوليان: المرجع =

لبعضهم وزراء. إلا أن أهميتهم كانت محدودة كما أسلفنا القول. وأما في عهد الأمير إبراهيم. الذي كان من بين القلة التي اتخذت الوزراء[1]. فقد برزت هذه الأهمية بشكل واضح، وتقررت مهام هذه الوظيفة، فأصبحت على نسق ما كانت عليه في الدول الإسلامية المستقلة، وكان وزراؤه وزراء تنفيذ وليس تفويض، ومن أشهرهم أبو عبد الله بن أبي إسحاق الذي أظهر قدرة فائقة في تسيير الأمور والتغلب على الأزمات بحنكته وحسن تدبيره، نخص بالذكر منها جهوده إبّان ثورة الدراهم[2]، وقد واصلت وظيفة الوزير ارتقاءها في الدولة الأغلبية بعد ذلك حتى كان عبد الله بن الصائغ وزير زيادة الله الثالث آخر أمرائها يتمتع بنفوذ كبير أشبه بنفوذ وزراء التفويض[3].

وينطبق مثل هذا القول على وظيفة الكاتب أيضاً، ذلك أن هذه الوظيفة بمدلولها المفهوم لم تكن في الدولة الأغلبية من قبل، وليس ذلك فحسب، بل لم يكن مرغوباً فيها من قبل المثقفين من علية القوم، وكان الأمراء يعتمدون في حاجاتهم ودواوينهم على بعض أصحاب الأقلام المتواضعين[4]، وتبعاً لذلك وكما يقول هوبكنز: (لم يكن على حد علمنا ثمة موظف يعرف بالكاتب مجرداً فحسب، بل إن الكلمة لم تستعمل في الأسماء المركبة ككاتب السر... إلخ كما كان في الدول الأخرى)[5]. فاستحدث الأمير إبراهيم هذه الوظيفة حيث بدأ يتولاها منذئذ أحد كبار الكتاب والمترسلين ممن عرفت لهم مكانة عالية في ميدان العلم والأدب، كان منهم في هذا

= السابق ج٢ ص٦٨.

(١) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص٧٦ وما بعدها.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٠.

(٣) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص٣٧.

(٤) انظر شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٨.

(٥) هوبكنز: المرجع السابق ص ٤٩.

العهد ابن حيون البريدي، وأبو اليسر الشيباني نفسه الآنف الذكر، الذي يقول عنه ابن عذاري أنه (كتب لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم)[1]، والذي كتب للمهدي الفاطمي فيما بعد، وأحمد بن محمد بن حمزة الذي تولى الحجابة فترة من الزمن أيضاً وكان يتمتع بنفوذ كبير[2].

وسرت روح التطوير والارتقاء إلى وظيفة الحاجب أيضاً في هذا العهد، فقد كان شاغل هذه الوظيفة من قبل يقوم بمهام لا تبعد كثيراً عن هذا المدلول، إلا أن الأمر قد اختلف في عهد الأمير إبراهيم، إذ أسندت لهذه الوظيفة من المهام ما جعل كبار رجالات الدولة لا يجدون غضاضة في توليها، فقد أصبح الحاجب المستشار الأكثر قرباً من غيره من الأمير الذي تصدر الكثير من الأمور عن رأيه فضلاً عن تمتعه بثقته، وأحياناً كاتم سره، وأما المهام الأصلية لوظيفته، فكان يقوم بها أحد أعوانه.

ومما يؤكد أهمية مكانته في هذا العهد، أن اثنين من بين الخمسه الذين حجبوا للأمير إبراهيم ووصلتنا أسماؤهم كانا رجلين عسكريين، هما محمد بن قرهب الذي ينتمي إلى أسرة عسكرية معروفة، والحسن بن ناقد الذي ذكر بأنه كان والياً على صقلية، وهو أمر صعب الحدوث أن يتولى قائد عسكري الحجابة لولا أن مكانتها كانت مرموقة بالفعل، ولا يقل الثلاثة الأخرون عن زميلهم في الأهمية وهم أحمد بن محمد بن حمزة الآنف الذكر، الذي بلغ من قوة نفوذه ودالته على الأمير إبراهيم أنه كان كاتم أسراره، وأنه تمكن من الحصول على تعيين ابن عمه والياً على القيروان، ثم نصر بن الصمصامة الذي لا شك في أنه كان ينتمي إلى بني الصمصامة إحدى القبائل المعروفة في الزاب، وثالثهم فتاه (فتح) الصقلبي

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٦٣.

(٢) هوبكتز: المرجع السابق ص٤٩.

الذي كان هو الآخر واسع النفوذ في قصر الإمارة[1]، وهكذا سمت مكانة الحجابة في الدولة ولم تعد مجرد وظيفة ثانوية.

وعملاً بالقول المأثور (العدل أساس الملك)، أولى الأمير إبراهيم االقضاء القدر الذي يستحقه من عنايته، لنشر العدل بين الرعية الذي كان من أول اهتماماته، لذلك حرص على اختيار قضاته من بين الفقهاء الذين عرفوا بسعة العلم والنزاهة والجرأة في الحق مثل سليمان بن عمران وابن طالب التميمي وعيسى بن مسكين وابن عبدون ونظرائهم، وكان يمنحهم سلطات مطلقة في تنفيذ أحكامهم حتى ولو على مفرق رأسه، ويضم إليهم من الكتاب ممن عرفوا بالتفقه والتدرب في الأحكام والاستقامة مثل عبدالله ابن محمد بن مفرج المعروف بابن البناء الذي ضمه إلى عيسى بن مسكين[2]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية كان هو الوحيد من بين أمراء الأغالبة الذي كان يجلس للنظر في المظالم[3] جريا على سنة الحكام المسلمين العظام، ويعتبر النظر في المظالم من مستحدثاته في النظام القضائي في الدولة الأغلبية، فكان يجلس لهذا الغرض في جامع القيروان يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع كما ذكره ابن الأثير[4]، في حين يقول الرقيق القيرواني في رواية أوردها النويري: (أنه كان أنصف الملوك للرعية، لايرد عنه متظلم يأتيه، وكان يجلس بعد صلاة الجمعة، وينادي مناديه: من له مظلمة: فربما لم يأته أحد لكف بعض الناس من بعض،

---

(١) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص٥٣ وما بعدها، كذلك شال أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٨.

(٢) انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٣٧.

(٣) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص٢٣٧ وما بعدها.

(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.

هذا، وكان يقمع أصحاب الأقدار والأغنياء عن الظلم ويعمل على إنصاف الرعية «فهم مادة الملك» ويبالغ في عقوبة أهل بيته وولده إذا ظلموا، وهو ينصف المتظلمين حتى من والدته)[1].

ولم يقف اهتمامه برد المظالم عند هذا الحد، اذ يذكر النويري أنه كان يجعل أولاده ورجالات دولته يأمرون عبيدهم وأتباعهم بالطواف يوم الخميس في الأحياء والأزقة والفنادق يبحثون إن كان هناك شاك أو متظلم من عبيد أو وكيل «فإذا وجدوا أحداً أتوا به إلى دار ولد الأمير أو قرابته

---

(1) انظر النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١٢٣ أ، انظر كذلك د. سعد زغلول عبدالحميد المرجع السابق ج٢ ص١٥٢-١٥٣.

وأما إنصافه المتظلمين حتى من والدته كما ورد في النص، فإن والدته الأميرة السيدة (أتراب) كانت ذات شخصية قوية ولها مكانة رفيعة في قلب ولدها، وكان لها نفوذ قوي ومشاركة في الحياة العامة حتى أنها ارتبطت بمعاملات تجارية مع بعض كبار التجار وأصحاب القوافل، من ذلك، ما يرويه النويري عن قصة تاجرين قرويين (من أهل القيروان) كانا قد شاركاها في تجارة فالتوت عليهما في بعض حقهما فأتيا إلى الأمير إبراهيم وهو بمقصورة المسجد الجامع بالقيروان ينظر في المظالم ورفعا إليه مظلمتهما قائلين: كنا شريكين للسيدة في جمال وغيرها، فاحتبست لنا ست مئة دينار، فأرسل خادما إلى والدته يسألها عن الأمر، ورجع الخادم يخبره على لسانها، نعم أن الأمر كما ذكرا: «إلا أن بيني وبينهما حسابا، وإنما احتبست هذا المال حتى أحاسبهما: فإن بقي عليهما شيء، وإلا دفعت مالهما إليهما» فوجه إليها يقسم أنها إن لم توجه المال إلى صاحبيه، فإنه سيجعلها تقف في التو واللحظة مع خصميها بين يدي صاحب المظالم عيسى بن مسكين، فانصاعت للأمر ووجهت بالمال فسلمه إليهما قائلا: «أما أنا فقد أنصفتكما فيما ادعيتما، فاذهبا واقطعا حسابها، وإلاّ فأنتما أعلم».

انظر النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١٢٣ أ، كذلك د. سعد زغلول عبدالحميد المرجع السابق ج٢ ص١٥٢ وما بعدها.

فينصفه»[1]. وظل الأمير إبراهيم ينظر بنفسه في المظالم ما يقارب الخمسة عشر عاما، ثم حينما زادت الأعباء عليه أسند هذه المهمة لابنه وولي عهده أبي العباس أحمد بن إبراهيم في سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١م[2]. وهكذا خيم العدل على ربوع إفريقية في عهده، وأمن الناس على حقوقهم، كما أمنوا باجراءاته الأمنية على أرواحهم وممتلكاتهم.

ونظراً لما كان لنظام البريد من أهمية كبيرة في إدارة الدولة بوصف صاحبه الذي كان في الدولة الأغلبية هو أيضاً صاحب الشرطة[3] كان يقوم بمراقبة العمال والقضاة وباقي الموظفين، والسلع والأسعار في الأسواق، ويكتب للأمير بما يستجد من أمور في ناحيته، فضلاً عن التجسس على الأعداء، فقد امتدت إليه يد الأمير إبراهيم بالتنظيم والتطوير، فربط أنحاء دولته بالعاصمة بشبكة بريدية منظمة زودها بالمحطات والدواب، ومن المعتقد أنه أفرد له ديواناً خاصاً، كما تفيد بعض النصوص التاريخية أن الحصون والرباطات الساحلية كانت في عهده تتخابر فيما بينهما بوسيلة مبتكرة هي إشارات معينة بالنار ليلاً وبالتدخين نهاراً عن تحركات العدو (حتى كان يوقد النار من سبتة فيصل الخبر إلى الإسكندرية في الليلة الواحدة)[4]، ومن المرجح أيضاً أنه كان هو الذي أدخل استعمال الحمام الزاجل في نقل الرسائل المستعجلة والذي جرى التوسع في استعماله في

انظر النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة١٢٣، كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٥٣.

ـ ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣٢، كذلك هوبكنز: المرجع السابق ٢٢٨.

ـ هوبكنز: المرجع السابق ص٥٣ وما بعدها، ويقول أنه كان يسمى بالإضافة إلى صاحب البريد، صاحب الكشف، وصاحب الخبر.

١ ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.

إفريقية لهذا الغرض في عهد خلفائه من بعده، ثم وعلى نطاق أوسع في الدولة الفاطمية منذ عهد المهدي خليفتها الأول[1].

كما أعاد النظر في تنظيم الجيش، إذ من المعروف أن الجيش الأغلبي كان يتضمن عناصر متعددة، فهنالك العرب، ومنهم من كان من أبناء الذين استقروا في إفريقية منذ الفتح أو الوافدين إليها فيما بعد، وكانوا يشكلون معظم فئة الفرسان، ثم الخراسانية وهم من أبناء الجند الذين قدموا إلى إفريقية مع الجيوش العباسية في أزمنة مختلفة، وأغلبهم كانوا مشاة، والبربر وكان معظمهم يستنفر للقتال عند الحاجة، وكان نفور هذه العناصر بعضها من بعض يسبب المتاعب للأمراء، ولذلك، حاولوا منذ وقت مبكر التقليل من اعتمادهم عليها جميعاً في أمورهم، وإدخال عناصر جديدة للجيش يكون معولهم عليها، ويذكر التاريخ أن إبراهيم الأول مؤسس الدولة استخدم العبيد السود كحرس شخصي له، ثم استكثر منهم حتى بلغ عددهم في عهده عشرة آلاف جندي، إلاّ أن خلفاءه أهملوا هؤلاء واستبدلوهم بعنصر جديد هو الصقالبة الذين اتخذوا منهم في البداية خدمهم وحرسهم الشخصي، ثم استكثروا منهم حتى أصبحوا قوة لا يستهان بها في الجيش الأغلبي.

ويبدو أن هؤلاء الصقالبة الذين ارتبطوا بالأغالبة برابطة الولاء شعروا بمكانتهم وأهميتهم منذ عهد أبي الغرانيق، فرأوا أنهم لا بد وأن يتمتعوا ببعض الامتيازات وأن تكون لهم كلمة مسموعة. وهم في ذلك ساروا على نهج نظرائهم من العناصر التي دخلت في خدمة حكام المسلمين في مختلف الأزمنة من أتراك، ومماليك، وإنكشارية وسواهم ، ويمكن في

---

(١) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٦٤و١٧٠، كذلك هويكنز: المرجع السابق ص٥٨-٥٩.

ضوء هذا الاعتبار تعليل محاربتهم للأمير إبراهيم عند توليه الإمارة، إذ أنهم أرادوا على ما يبدو في الحكم طفلاً يسيرونه حسب مشيئتهم، ثم تمردهم عليه حينما انتقل إلى رقادة، وترك قسماً كبيراً منهم في العباسية لأن ذلك أبعدهم عن مركز الدولة وبالتالي أبعدهم عن المشاركة في توجيهها وحرمهم من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها.

وعلى ذلك، رأى الأمير إبراهيم أنه لمواجهة الحوادث والمشاكل التي ثارت في وجهه، لا بد من الاعتماد على عنصر جديد يدين له بالطاعة المطلقة، فعاد إلى استخدام العبيد السود مقتدياً بذلك بجده إبراهيم الأول، ويرى (دي سلان) أن هؤلاء العبيد الذين استخدمهم الأمير إبراهيم، كانوا أبناء الأول عبيد جده، إلاّ أن هوبكنز يستبعد ذلك[١] ويرى أنه حصل عليهم عن طريق الشراء، وأياً كان الأمر، فإنه استكثر منهم ودربهم تدريباً عسكرياً ممتازاً ووضعهم تحت إمرة قائدين منهم هما ميمون وراشد حسب رواية النويري[٢]، في حين يقول هوبكنز أنهم وضعوا تحت إمرة قواد صقالبة[٣].

وقد اختلفت المصادر التاريخية في تحديد عددهم، فالمقل منهم يجعلهم ثلاثة آلاف، والمكثر يجعلهم مئة ألف، وفي القول الأخير بلا شك مبالغة واضحة، وأغلب الظن أن عددهم لم يزد عن عشرة آلاف في وقت من الأوقات[٤]، وعلى أية حال، فإنهم في سنة ٢٧٨هـ / ٢٧٩هـ

---

(١) انظر هوبكنز: المرجع السابق ص١٤٠.

(٢) النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١١٩أ.

(٣) هوبكنز: المرجع السابق ص١٤٠، انظر كذلك ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٢.

(٤) انظر عن ذلك النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١١٩أ. ابن عذارى: المصدر =

(٨٩١م / ٢٩٢)، حلوا محل الجنود الصقالبة، وأصبحوا يشكلون قوة ضاربة في الجيش فضلاً عن الحرس الشخصي للأمير، ظلت على ولائها له وشاركت في حروبه منذئذ مما جعله يقلل من اعتماده على عناصر الجيش الأخرى حتى تراجعت مكانتها، وكان من أشهر الحروب التي شاركوا فيها، إخماد الثورة الثانية لمدينة تونس، ثم ضد أباضية ونفوسة اللتين سبقت الإشارة إليهما. ومنهم من وصل إلى رتبة أمير مطوق مثل ميمون الآنف الذكر الذي قتل مع عدد منهم في الحرب الأخيرة[1].

وما يذكر في هذا المجال أيضاً، أن الأمير إبراهيم نظم ديوان الجيش، وأسقط منه الذين كان يشك في ولائهم. وزاد في رواتب الجند، ومع أننا لا نعلم مقدار هذه الزيادة بالضبط، إلاّ أننا يمكننا تقديرها بصورة تقريبية. فقد كان الأمير عبد الله الأول يدفع لهم منذ ولايته على طرابلس أربعة دراهم للفارس ودرهمين للراجل في كل يوم[2]، أما الأمير إبراهيم فقد دفع لجنده رواتبهم في صقلية عند رحيله إليها للجهاد. إذ تقول الرواية أنه أمر بالعطاء، فأعطى الفارس عشرين ديناراً والراجل عشرة[3]. وحيث أن صرف الدينار هو عشرة دراهم. فإن ذلك يعني أن هذه الرواتب أصبحت في عهده مئتي درهم للفارس ومئة للراجل شهرياً، وعلى ذلك فإن الراتب الشهري للفارس قد زاد (٨٠) درهماً وللراجل (٤٠) درهماً عما كان عليه في عهد الأمير عبد الله.

السابق ج١ ص١٢٣. د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٣٣ وما بعدها.

(١) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٩، النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص ١٢٠ أ. د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٤٢.

(٢) انظر هويكنز: المرجع السابق ص١٣٨.

(٣) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٨١.

ولا شك في أن صراعه مع البيزنطيين في البحر المتوسط، فرض
الاهتمام بالأسطول، فمن المرجح أنه أفرد له ديواناً خاصاً يشرف
شؤونه، كما أولى دار الصناعة في سوسه قدراً كبيراً من عنايته
المركز الرئيسي لبناء السفن الحربية وقاعدة الأسطول الأغلبي
وقتئذ، كما جدد دار الصناعة في تونس أيضاً، وألحق بهما مر
الصناع على اختلاف تخصصاتهم وأمدهما بما يحتاجانه من مواد ك
والحديد والقطران وكتان القلوع وقنب الحبال والتي كانت كلها تنتج
مما يفي بمتطلبات نشاطه البحري، وتوسع بصفة خاصة في إنتاج ال
التي كانت تقذف النار اليونانية، والتي كان مسلمو إفريقية قد
للكشف عن سرها في تلك الآونة وبرز من علمائهم من تخصص
صناعتها مثل ابن القيار الذي كان من بين نخبة العلماء الذين ضمه
الأمير إبراهيم كما سيأتي ذكره، ونتيجة لكل ذلك تمكن الأسطول ا
في هذا العهد من إحراز عدة انتصارات كبيرة على نظيره البيزنطي
وفرض سيادته على مياه وسط البحر الأبيض المتوسط بلا منازع.

وبناء على ما تقدم، نخلص إلى نتيجة هامة هي أن الأمير إبراهي
السياسية الإصلاحية، ارتقى بأجهزة الدولة من أجهزة متواضعة لإدار
إلى مؤسسات إدارية وسياسية متكاملة وفق أحدث ما كان معمولاً
نظم في ذلك العصر لإدارة دولة حديثة قائمة بذاتها، الأمر الذي يجع
نغالي إذا قلنا أنه كان المجدد للدولة الأغلبية.

انتعاش الحياة الاقتصادية:

يقول ابن خلدون في مقدمته: (فعلى نسبة حال الدولة يكون
الرعايا، وعلى نسبة يسار الرعايا وكثرتهم يكون مال الدولة، وأصا

العمران وكثرته)[1]، فهو يشير بوضوح في هذا النص إلى العلاقة الوثيقة بين وضع الدولة والرخاء الاقتصادي لها وللرعية معاً، وحيث أن حال الدولة الأغلبية قد تطور إلى الأحسن في عهد الأمير إبراهيم كما بيناه آنفاً، وانتقلت بجهوده من طور إلى طور، فإنه كان لا بد أن ينعكس ذلك إيجابياً على الحياة الاقتصادية فيها، فقد شهد اقتصاد إفريقية في هذه الفترة نهضة واسعة في مختلف فروعه مما جعل الرخاء يعم قطاعات كثيرة من الرعية بالرغم من بعض المعوقات التي تمثلت في الثورات والاضطرابات التي سبقت الإشارة إليها، والتي أمكن التغلب على غالبيتها.

الزراعة:

من المعروف أن المناطق الكبرى المنتجة للحبوب في حوض البحر المتوسط كانت ثلاث مناطق هي: إفريقية، ومصر، وبلاد الشام، فقد بلغ من وفرة إنتاج إفريقية من الحبوب أن بعض نواحيها مثل المنطقة الواقعة بين القيروان والكاف كان يجود فيها القمح في سني الخصب بنسبة مئة حبة لحبة البذر الواحدة[2]، ومثلها منطقة باجه التي سميت باجة القمح لجودته فيها، وينطبق نفس الأمر على باقي أنواع الحبوب، ولذلك ليس من الغريب أن تدعى بأهراء روما في العصر الروماني نظراً لأنه كانت توفر للرومان قسماً كبيراً من قوتهم، وقامت بنفس هذا الدور بالنسبة للبيزنطيين، وأما الأشجار كالزيتون والتين والكرمة وغيرها فقد كثرت في ربوعها في العصر الروماني حتى كانت أشبه بحديقة كبيرة.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٠١.

(٢) انظر نجاة باشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة ص٤٣.

ومع أن الفلاحة والعناية بالأرض الزراعية قد تراجعت فيها إلى حد كبير قبيل الفتح الإسلامي نتيجة للهجمة الوندالية المدمرة، وللسياسة الاضطهادية التي مارسها البيزنطيون ضد أهلها منذ قضائهم على دولة الوندال وبسط نفوذهم عليها واشتطاطهم في جمع الضرائب مما جعل كثيراً من الفلاحين يهجرون أراضيهم، ثم أثناء الفتح نتيجة للسياسة الخرقاء التي انتهجها بعض من قادوا المقاومة ضد المسلمين مثل الكاهنة التي كان تدمير المزارع وقطع الأشجار لتزهيدهم فيها كما اعتقدت يمثل ركناً هاماً في حركتها، إلا أنه منذ استقرار الفتح وبما عرف عن المسلمين من تشجيع للاقتصاد بل والحضارة بوجه عام، وبما وفروه من أمن وسلام واستقرار في البلاد التي أظلها الإسلام بظله عادت الزراعة في إفريقية إلى نشاطها من جديد.

وقد اهتم أمراء الأغالبة منذ قيام دولتهم بتشجيع الزراعة في ربوع إفريقية، فأعيد إصلاح ما كان قد دمر من مزارع بفعل الثورات والانتفاضات، كما أعيد تعمير شبكة قنوات الري من جديد، وأضيف إليها من السواقي والقنوات الحجرية أو الحنايا والخزّانات الضخمة لحفظ المياه وتوزيعها عند الحاجة ما جعل هذه الشبكة تمتد في طول البلاد وعرضها بحيث أصبحت تروي مناطق نائية، واستصلحت أراض جديدة لم تكن قد استُغلت من قبل، الأمر الذي جعل جوليان يقول بأنهم انتهجوا سياسة اقتصادية واعية في ميدان الماء (ويشهد بذلك ما أقاموه من مخازن مياه وحنايا، ويظهر أن إفريقية عاشت في القرن التاسع فترة رخاء)[1]، يضاف إلى ذلك اهتمامهم باستيطان زراعات جديدة في المناطق الحارة والسقوية منها ما جلب من الشرق الأقصى كالأرز، وقصب السكر، والقطن،

---

(١) شارل أندري جوليان: المرجع السابق ج٢ ص٦٧-٦٨.

والموالح (الحمضيات)، ومنها ما جلب من إفريقية السوداء كالذرة[1]، حتى عادت لإفريقية خضرتها ورونقها وعادت لاستئناف دورها في العطاء من جديد.

وما يهمنا من هذا العصر هو عهد الأمير إبراهيم بالذات الذي تجلى هذا النشاط الزراعي في زمنه بأبهى صوره. ويعود ذلك في اعتقادنا لعدة أسباب أهمها أن الازدهار الاقتصادي واستتباب الأمن هما الدعامتان الرئيسيتان لازدهار الحضارة، وما دام قد أخذ على عاتقه النهوض بدولته نهضة شاملة فلا بد أن تحظى الزراعة بوصفها أحد أركان الاقتصاد الرئيسية بالقدر الذي تستحقه من عنايته، لما توفره من رخاء لرعيته فضلاً عن قوتها الضروري للحياة والتي كانت في ازدياد مستمر لأن إفريقية أصبحت وقتئذ أكثر من أي وقت مضى مركز جذب للسكان بدليل كثرة الوافدين إليها على اختلاف أنواعهم من رقيق وتجار وصناع وعلماء وغيرهم[2] ولما تدره أيضاً من دخل لخزانته بوصف الخراج المتحصل منها كان المورد الرئيسي لتلك الخزانة، وبالتالي يمثل العمود الفقري للنهضة التي كان ينشدها.

وثاني هذه العوامل، هو أن كثيراً من المنتجات الزراعية أصبحت وقتئذ سلعاً أساسية في قائمة التبادل التجاري سواء على نطاق التجارة الداخلية أو بالنسبة للتجارة الخارجية لا سيما مع قلب القارة الإفريقية والتي عرفت بالتجارة الصحراوية مثل التمور والزبيب، والحبوب، والسكر، والزيت،

---

(١) انظر نجاة باشا: المرجع السابق ص٤٤.

(٢) يقدر الاقتصاديون أن تجمعاً سكانياً من ثلاثة آلاف نفس يحتاج لقوته حوالي ٥ر٨كلم٢ من الأراضي الزراعية الخصبة ابتداء من القرن الحادي عشر للميلاد لضعف وسائل الزراعة آنذاك (انظر د. الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية ((٣-٤هـ / ٩-١٠م))، ص٣٥ وما بعدها).

واللحوم كما سيأتي ذكره، إذ كان لا بد من تلبية متطلبات التجارة التي نشطت في هذا العهد من هذه الموارد والتي كانت تدر أرباحاً كبيرة.

وثالثها، هو غلبة الطابع الديني وقتئذ، وتأثير الفقهاء في الحياة العامة، إذ أن الكثير منهم كان يتحاشى العمل في وظائف الدولة وحتى في قطاع التجارة، بخاصة التجارة الخارجية، مما جعل هؤلاء يتجهون إلى الزراعة، ودليلنا على ذلك ما ذكره المالكي عن الإمام سحنون أنه عرض على صاحبه سعيد بن عباد صرة مال مقسماً له أنها (ما هي من مال سلطان، ولا من تاجر، ولا من وصية، وإنما هي ثمرة بعتها، غرستها بيدي، فخذها تتقوى بها على أمر آخرتك ودنياك)[1]، وفي ذلك يقول القاضي عياض عنه أيضاً أنه كان يملك اثني عشر ألف شجرة زيتون[2]، وإذا كان الإمام سحنون قد توفي قبيل عهد الأمير إبراهيم (ت سنة ٢٤٠هـ) فإن تلاميذه هم الذين كانوا يوجهون الحياة الدينية في إفريقية في هذا العهد وهم الذين كانوا نخبة علمائها وقتئذ.

ثم من ذلك أيضاً ما يذكره القاضي عياض من أن عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي المعروف بالزاهد أحد تلاميذ الإمام سحنون الآنف الذكر والذي عاصر الأمير إبراهيم كان يملك سبعة عشر ألف شجرة زيتون[3]، ولم يكن هؤلاء يجدون غضاضة في العمل في الزراعة بأيديهم، وكانوا يغادرون المدن للإقامة في ضياعهم ومزارعهم لجمع المحصول في أوقاته[4]، وكان ؤلاء هم قدوة العامة، لذلك فإنه مما لا شك فيه أنهم بفعلهم هذا قد

ـمالكي: رياض النفوس ج١ ص٢٦١.
القاضي عياض: المصدر السابق ص١٦٣.
القاضي عياض: المصدر السابق ص١٦٣.
انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص٩٧و٢٥١.

وجهوا الكثير من الناس للعمل في الزراعة.

ولعل رابعها كثرة الرقيق الذي كان يجلب إلى إفريقية في تلك الفترة، حيث كان يلحق قسم منهم وبصفة خاصة الرقيق الأسود للعمل في هذا القطاع لما عرف عن هؤلاء من جلد وقدرة على تحمل العمل الشاق فضلاً عن رخص تكلفتهم، وهو أمر لم تنفرد به إفريقية دون أقطار العالم الإسلامي، بل جرى مثله في العديد منها مثل العراق وبلاد الشام حيث كان العبيد يُستغلون في خدمة الأرض، وأخيراً وليس آخراً حاجة بعض الصناعات المتزايدة للمواد الأولية الزراعية مثل صناعات النسيج والصابون والسكر وطحن الغلال والدبس والنبيذ والعطور وغيرها.

ولكل هذه الأسباب مجتمعة نشطت الزراعة في هذا العهد نشاطاً لم يسبق له مثيل بحيث أصبحت مساحة الأرض المستغلة تشكل قسماً كبيراً من أراضي إفريقية، وزاد الإنتاج وتنوع عن ذي قبل، ولعل خير دليل على ذلك هو ما ذكره اليعقوبي الذي ساح في إفريقية والمغرب في هذه الفترة حيث قال أن المنطقة الممتدة بين قمودة (سيدي بوزيد) والساحل كانت تزهو بخضرتها وأشجارها، ويعلق جورج مارسيه على ذلك بقوله: إن أشجار الزيتون قد انتشرت في المنطقة التي تمتد لمسافة (١٥٠) ك.م. وكذلك في كل إقليم الساحل، كما انتشرت فيها البساتين التي زخرت بمختلف الأشجار المثمرة والقرى التي كادت تلامس بعضها البعض من كثرة ازدحامها، وكان لكل قرية منها معصرة الزيت الخاصة بها[١]، كما ويمكن اعتبار غرس البساتين وجنات رقادة وما استنبت فيها من صنوف الأشجار والرياحين وما أجري فيها من مياه، والتي كانت نموذجاً احتذاه الناس دليلاً آخر على هذا النشاط وعلى جهود الأمير إبراهيم فيه.

---

(١) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٤٩٥.

وكان لا بد أن ينعكس هذا النشاط إيجابياً على الثروة الحيوانية أيضاً، وكان ذلك سبباً ونتيجة له في نفس الوقت، فقد تطلب الأمر زيادة أعداد الحيوانات المستخدمة في العمل الزراعي، وبزيادة رقعة الأراضي المزروعة توفر الغذاء لقطعان جديدة من الحيوانات فضلاً عن تلك التي كانت ترتع في مروج الجنوب لتفي بالحاجة المتزايدة من اللحوم والأصواف والجلود والألبان تبعاً لازدياد العمران.

وبناء على ما تقدم، لم نعد نستغرب ما ذكره اليعقوبي عن ازدهار الزراعة في هذا العهد كما أشرنا إليه آنفاً، ومن بعده البكري الذي زار إفريقية بعد ذلك والذي قال بأنه كان يخرج من توزر في بلاد الجريد ألف حمل من التمور كل يوم إلى مختلف الجهات[1]، وأن جباية هذه البلاد كانت مئتي ألف دينار[2]، وجنات الفستق كانت في قفصه مترامية الأطراف ومنها كان يصدر إلى مصر والأندلس وسجلماسة، وأن جلولاء كانت تمير القيروان بقصب السكر والثمار والبقول[3]، وأنه كان يحمل من باجة كل يوم ألف حمل بعير من الحبوب إلى تونس والقيروان[4]، إلى غير ذلك من النصوص التي تؤكد هذا الازدهار الذي لم يخلق فجأة، وإنما تعود جذوره إلى فترة سابقة على زيارته بطبيعة الحال.

الصناعة:

إن التطور العمراني في مصر من الأمصار يؤدي بالضرورة إلى نشاط الصناعة فيه، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته: (إن المكاسب إنما

---

(١) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص١١٨.
(٢) البكري: المصدر السابق ص٤٩.
(٣) البكري: المصدر السابق ص٣٢.
البكري: المصدر السابق ص٥٦.

هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم [السكان] فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن، والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتنفق أسواق الأعمال والصنائع ويكثر دخل المصر وخرجه ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمتها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول...)[1]، فهو يصور في هذا النص حركة الصناعة ويعلل أسباب نشوئها وتطورها والفائدة المحصلة منها للمجتمع.

وعلى ذلك، فإن التطور العمراني الكبير الذي شهدته إفريقية في عهد الأمير إبراهيم قد أدى إلى تطور الحرف وتنوع المهن، وابتكار صناعات جديدة لمواكبة هذا التطور، وأصبح يمارسها قطاع كبير من الطبقة الشعبية بعد أن حظيت باحترام المجتمع، يدل على ذلك كثرة الأسماء في كتب التراجم والطبقات التي تلقب أصحابها بإحدى هذه الصناعات أو الحرف وتعود لتلك الفترة مثل: البناء، اللباد، الحائك، الخياط، الرفاء، الطلاء، الصباغ، الصايغ، القيار، الخزاف، الخراز، الدباغ، الزجاج، القصار، الغرابلي، الحداد... إلخ.

ومع أن الصناعة في إفريقية بقيت آنذاك في إطار الحرفية، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون عملية التطوير والتحسين وزيادة الإنتاج لتلبية حاجات الاستهلاك المحلي، ومتطلبات التبادل التجاري، سواء مع المشرق أو مع بلاد السودان الغربي، فقد ورد من النصوص التاريخية ما يؤكد أن هنالك

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص ٣٠١.

مصنوعات إفريقية كانت تصدر إلى الأخيرة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري[1].

وإذا استعرضنا هذه الصناعات نلاحظ أنها قد تركزت في الفترة التي نبحث فيها فيما يلي:

* الصناعات المتعلقة بالبناء والتشييد: كالطوب الذي كان يصنع من الطين والتبن، والآجر، والأخشاب، وقطع الحجارة، والخزف، والزجاج، والكلس، وما يتبع ذلك من أعمال النجارة والحدادة، والتي ازدهرت جميعاً وقتئذ لتفي بمتطلبات حركة المعمار التي نشطت إلى حد كبير سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي وقد تمثل ذلك في بناء القصور والحصون والأسوار كما سيأتي ذكره.

* صناعة الغزل والنسيج وما يتبعها من القصارة والصباغة وتركيب الألوان: والتي اشتد عليها الطلب وقتئذ في المشرق والمغرب على حد سواء لما نالته بعض أنواع منسوجات إفريقية من شهرة مثل البسط والسجاد (الزرابي) التي اشتهرت بها القيروان، والبرانس التي اشتهرت بها جربة فضلاً عن المنسوجات الصوفية الأخرى التي اشتهرت بها سوسة، والمنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها قابس بصفة خاصة لنعومتها ورقتها ودقة صنعها، والقطنية وكذلك القطنية الحريرية التي تخصصت فيها سوسة أيضاً، وقد بلغ من نشاط هذه الصناعة أن النساء كن يغزلن الخيوط في بوت، ثم إما يعنه غزلاً كما ذكره الدباغ في ترجمته لأبي عمرو بن ؛ بن عمرو القاضي الزاهد من أن معيشته كانت من عمل جارية سوداء

انظر المالكي: المصدر السابق ج ١ ص ١١٧، كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص ٥٩، ٦٢.

له كانت (تغزل وتبيع غزلها وتطعمه)[1] أو يقمن بنسجه في مناسج في بيوتهن[2].

* المصنوعات الجلدية وما يتبعها من الدباغة والتمحير والصبغ: وقد اشتهرت بها مدن عديدة أهمها القيروان حيث كانت تصنع السروج والأحذية والمناطق والأنطاع... الخ.

* الفنون الصناعية: وتشمل أعمال التكفيت والتطعيم والتصديف والتذهيب والحفر على العاج والخشب والمعادن، وصناعة البلور والزجاج الفني والملون، والصياغة، وتجليد الكتب، وقد اشتهرت بها مدينتا القيروان وتونس بصفة خاصة.

* صناعات تشرف عليها الدولة: مثل ضرب العملة، وصناعة الأسلحة، ودار الطراز، وبناء السفن الحربية وما يلزمها من تجهيزات وأسلحة.

* الصناعات المتعلقة بالزراعة: وتشمل معاصر الزيت، ومطاحن الغلال، ومحالج القطن، ومصانع السكر.

* صناعة التعدين: وكان ينهض بعبئها الرقيق بصفة خاصة، وكانت أشهر مناجم الحديد بالقرب من (مرماجنة) على الحدود التونسية الجزائرية في عصرنا الحاضر، فضلاً عن مناجم الفضة والرصاص والكحل.

* صناعات متفرقة: مثل الفخار، الحبال، الورق، العطور، العد والأدوية، مستحضرات التجميل، الآلات العلمية الدقيقة، السفن التج

---

(١) الدباغ: معالم الأيمان ج ٢ ص ٣٥٧.

(٢) انظر المالكي: المصدر السابق ج ١ ص ١٣١، كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص ٧٩- ٨٠.

وقوارب الصيد وغيرها.

وأما أهم الصناعات التي دخلت إلى إفريقية في عهد الأمير إبراهيم فكانت كما يلي:

* صناعة الآلات العلمية كالاصطرلابات والآلات الفلكية التي تخصص في صنعها عثمان بن سعيد الذي اشتهر بالصيقل بسبب ذلك كما سيأتي ذكره.

* صناعة الورق، وسنتعرض لها فيما بعد.

* صناعة مستحضرات التجميل التي تخصص فيها إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم وكان هو أول من أدخلها إلى إفريقية كما قال الزبيدي[١].

* التوسع في صناعة النار اليونانية إن لم تكن قد استحدثت في عهده، إذ أن المعلومات عن هذا الموضوع قليلة ومن غير اليسير التوصل إلى رأي قاطع بشأنها، وقد تخصص في صناعتها ابن القيار.

وما تجدر الإشارة إليه هو أن صاحب المصنع أو المحل كان يدعى عصرئذ (المعلم)، وكان الصناع إما رقيقاً عنده أو أجراء يدفع لهم أجورهم باليوم أو حسب القطعة[٢]، وكان هؤلاء يبدأون حياتهم صبيانا ثم يتدرجون في الحرفة حتى يحذقونها، ومن ثم يستقلون في كثير من الأحيان إذا كانوا من الأحرار. كما كان يحدث أحياناً أن تتوارث بعض الأسر إحدى الحرف

---

(١) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين ص٢٤١.
انظر مقالنا عنه في مجلة العربي، عدد ٣٢٨ لشهر آذار (مارس) ١٩٨٦ ص١٠٦ وما بعدها.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٧٩.

جيلاً بعد جيل.

وهكذا ازدهرت الصناعة أيضاً في هذا العهد، وقامت بالدور الذي رسم لها في دعم اقتصاد البلاد خير قيام.

التجارة:

تجلى الانتعاش الاقتصادي في هذا العهد أكثر ما تجلى في التجارة، إذ نشطت وقتئذ بحيث أصبحت عائداتها هي الدعامة الرئيسية لهذا الاقتصاد، فقد استفادت إفريقية من موقعها الجغرافي المتميز في قلب حوض البحر المتوسط مركز الحركة في العالم القديم، وقد طرأ منذ أوائل القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلاد حادثان هامان كان لهما أثرهما الفعال في هذا النشاط، أولهما تحول طريق الذهب القديم الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة لكثرة مخاطره على القوافل التي كانت تسلكه، واتجاهه بدلاً من ذلك إلى بلاد المغرب، جاعلاً من القيروان وبلاد الجريد وورجلان وتاهرت وتلمسان وفاس وسلجماسة مراكز تجارية نشطة تتفرع منها شبكة مسالك تجارية متعددة، وما ارتبط بذلك التحول من اكتشاف مصدر جديد وغزير لسلعتين من بلاد السودان الغربي هما الذهب الذي ظل طوال بضعة قرون يغذي مصانع ضرب العملة الذهبية في بلاد المغرب، وتجمعت منه ثروات طائلة في مدنه، ويدعم التبادل التجاري بين العالم الإسلامي والأقطار الأخرى[1]، ثم الرقيق الأسود الذي أصبحت له قيمة اقتصادية وعسكرية كبيرة في العالم الإسلامي، حيث كان هؤلاء العبيد يلحقون في الزراعة والصناعة وحراسة القوافل التجارية، ومنهم من كان يلتحق بالجندية، وقد رأينا أن الأمير إبراهيم قد جند منهم حوالي العشرة

---

(١) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٣٢.

آلاف جندي، ويبلغ عددهم في جيش أحمد بن طولون أربعين ألفاً، إلى حد أنه خصص لهذه السلعة بالقيروان وقتئذ سوق خاص بها هو سوق البركة[١].

وثانيهما هو سيطرة الأسطول الأغلبي وبصفة خاصة في عهد الأمير إبراهيم على مياه وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط مما فتح الباب على مصراعيه أمام تجارة إفريقية مع جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب غرب أوروبا فضلاً عن المشرق، يضاف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من إجراءات أمنية اتخذها الأمير وقتئذ في سبيل تأمين الطرق التجارية البرية حتى أصبح (القوافل والتجار يسيرون في الطرق آمنين)[٢]، الأمر الذي جعل من إفريقية إحدى المناطق التجارية الرئيسية في العالم الإسلامي بأسره وليس في غربه فقط بواجهتيها التجاريتين، البحرية المتمثلة في الموانىء التجارية الواقعة على شواطئها الشرقية والشمالية كطرابلس وسفاقس وسوسة وتونس وبنزرت وطبرقة وعنابة، والداخلية أو الصحراوية المتمثلة في بلاد الجريد، فضلاً عن الترابط المتين بينهما وبين المراكز التجارية الأخرى في أقطار المغرب والذي لم يحل دونه الخلاف السياسي بين الدول القائمة في هذه الأقطار لاكتفاءكل منها بموارد المسالك التجارية فيها دون محاولة توسيع نطاقها على حساب الآخرين[٣].

وعلى ذلك، نشطت في إفريقية وقتئذ كلتا التجارتين الداخلية والخارجية، وكانت القيروان هي قلب هذا النشاط، إليها ترد القوافل ومنها تصدر في حركة دائمة على مدار العام، يدلنا على ذلك المبالغ الضخمة

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٢ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.

(٣) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٢٢.



المحصلة عند أبوابها مكوساً على هذه القوافل والتي بلغت ستة وعشرين ألف درهم في اليوم عند كل باب كما سبق ذكره، فكانت باجة تميرها بالحبوب وبلاد الجريد بالتمور والفستق وغيرها وبلاد الساحل بالزيت وسردانيا بالحمضيات والبقول والعسل، وما حولها من مزارع بالخضر وقلشانة ومدكوك بالتين كما تقدم ذكره أيضاً، وبذلك غطت هذه التجارة الداخلية حاجات السكان من السلع الاستهلاكية بسهولة.

وكما أسهم العديد من علماء إفريقية وفقهائها في النشاط الزراعي، أسهموا أيضاً في تنشيط التجارة الداخلية، فمع أنهم وقفوا موقفنا سلبياً من التجارة الخارجية وبخاصة مع بلاد السودان الغربي وتورعوا عن أخذ المال المكتسب فيها ربما لما عرفت به من الربح الفاحش، بدليل ما ذكره الدباغ عن الإمام سحنون في النص الذي أوردناه آنفاً، ثم ما ذكره القاضي عياض في ترجمته لأبي الفضل أحمد بن علي أحد تلاميذ الإمام سحنون، من أنه ترك أكثر من ألف دينار من ميراث أبيه ولم يأخذها وحينما سئل عن ذلك قال: (كان من تجارة العاج فكرهته لما جاء فيه عن أهل العلم)[1]، إلا أن كثيراً منهم لم يجد حرجاً في العمل في التجارة الداخلية، فكان لهم حوانيت يتجرون فيها بسلع مختلفة مثل عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي الزاهد الذي ذكرناه آنفاً والذي كان في أول أمره تاجراً في سوق البزازين[2]، وعون بن يوسف الخزاعي الذي كان له حانوت يبيع فيه

---

(١) انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٢٢، كذلك المالكي: المصدر السابق ص٣٨٨، د. الحبيب الجنحاني: المصدر السابق ص٦٣.

(٢) انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص١٥٩، كذلك المالكي: المصدر السابق ج١ ص١٧٦.

الكتان[1] وإسماعيل بن نافع من تلاميذ علي بن زياد الذي كان بزازاً[2]، وهاشم بن مسرور التميمي الذي كان عنده ألف دينار فتصدق بها حتى لم يبق منها إلا خمسة دنانير ثم أتجر بها فعادت ألفاً[3]، وأبو داود العطار الذي كان له حانوت عطارة في سوق القيروان[4] وغيرهم، مما جعل الناس يقبلون على هذه التجارة الأمر الذي زادها نشاطاً وازدهاراً، فجنوا من ذلك الأرباح التي كفلت لهم الرخاء، وجنى كبار التجار ثروات طائلة هي التي أكسبت المدن مظاهر الثراء، الأمر الذي دفع ببعض أفراد الطبقة الحاكمة للعمل فيها، إلى حد أن والدة الأمير إبراهيم نفسه السيدة (أتراب) لم تجد حرجاً في العمل في التجارة، فكانت تشارك بعض التجار وأصحاب القوافل كما سبقت الإشارة إليه.

وأما التجارة الخارجية فقد مارستها فئة كبار التجار، كما أسهم فيها أهل الذمة، فقد كان لليهود سوق خاص بهم في القيروان تعرف بسوق اليهود، ثم اليهود الردانية أو الرهادنة كما كانوا يسمون في إفريقية والذين كانت لهم حوانيت خاصة بهم في سوق القيروان أيضاً[5]، وأما النصارى فكانوا يسيطرون على تجارة الزيت في المدن الساحلية[6]، ويبدو أن أهل الذمة هؤلاء قد ظهرت منهم أمور منكرة من غش وتلاعب وتعامل بالربا بخاصة اليهود الذين مارسوا مثل هذه الأعمال في كل مكان وصلوا إليه عبر

---

(١) انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص١٢٨.

(٢) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٨٧.

(٣) الدباغ: المصدر السابق ج٢ ص٣٤٤.

(٤) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٠٧.

(٥) انظر القاضي عياض: المصدر السابق اص٢١٨، وكذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٥٧.

(٦) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٩٠-٩١.

التاريخ، مما جعل القاضي ابن طالب يفرض عليهم في سنة ٢٧٠ / ٨٨٤م أن يجعلوا على أكتافهم رقاعاً بيضاء في كل رقعة منها رسم قرد وخنزير وأن يجعلوا على أبواب بيوتهم ألواحاً مسمرة في الأبواب مصور فيها مثل ذلك[1]، إذ لا تفسير لهذا الإجراء وإجرائية الآخرين من منع التعامل بالربا، وإجبار الصيارفة على دراسة (كتاب الصرف) اللذين أشرنا إليهما آنفاً واللذين اتخذهما في تلك الآونة أيضاً، إلا أن يكون ذلك هو الدافع لها جميعاً لما عرف به ابن طالب من تديّن وورع وحرص على تطبيق الكتاب والسنة واتباع لما أوصى به الإسلام من احترام لأهل الذمة والحفاظ على حقوقهم.

وتجدر الإشارة هنا إلى موضوعين هامين أولهما أن فنيات التجارة الإسلامية في القيروان في هذا العهد عرفت نظام الشركة والوكالة التجارية، فيذكر القاضي عياض أنه كانت بين عبد الجبار بن خالد السرتي (ت سنة ٢٨١هـ) وحمديس القطان (ت سنة ٢٨٩هـ) تلميذي الإمام سحنون (شركة في القطن يعملان في سوق الأحد فيه)[2]، ثم ما ذكرناه عن الشركة بين السيدة أتراب والدة الأمير إبراهيم والتاجرين القيروانيين، وأما الوكالة التجارية فقد برزت في التجارة الخارجية، فالوكيل إما أن يكون وكيلاً لتاجر واحد أو لأكثر من ذلك، وكان من مهامه تجهيز القوافل الخاصة بموكليه[3]. كما ارتبطت التجارة الداخلية بالزراعة، ولذا فقد عرفت صيغة المخاضرة بعد أن قرر شرعيتها الإمام سحنون الذي اشترى محصول زيتون

---

(١) المالكي: المصدر السابق ج١ ص٣٨١، كذلك القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٢٣، كذلك د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٥٦.

(٢) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٩٦.

(٣) انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٥٨.

قبل موعد قطفه ثم باعه في الموسم[1] فاقتدى به الناس في ذلك.

وثانيهما هو ما ظهر من نشاط في النقل البحري في هذا العصر بين مدن إفريقية من جهة، وبينها وبين الأندلس وجزر غرب المتوسط والولايات الإسلامية الأوروبية من جهة ثانية، إلى حد أن الأمير إبراهيم نفسه شارك في هذا النشاط كما يفهم من نص أورده الدباغ في ترجمته لموسى بن عبد الرحمن القطان جاء فيه أن موسى هذا كان مسجوناً فأخرجه الأمير إبراهيم من السجن وكان (سبب خروجه مسألة مركب عطب لإبراهيم بن أحمد (أي الأمير) فأفتاه بقولي ابن القاسم وابن نافع، فابن القاسم يقول: الكراء على البلاغ، وابن نافع: يقول: يعطى من الكراء بمقدار ما سار)[2]، الأمر الذي كان له أثره الإيجابي القوي على هذا النشاط بخاصة وعلى التجارة بوجه عام، واحتاج تطور هذا النقل وقتئذ إلى ضبط المعاملات فيه، فألف محمد بن عمر (ت سنة ٢٩٧هـ) كتاباً في هذا الموضوع هو كتاب (أكرية السفن)[3] للاستنارة به.

وأما أهم السلع في قائمة هذا التبادل التجاري، فكانت مع بلاد السودان الغربي كما يلي: الحبوب، والملح، والتمور، والزبيب، والعسل، والسكر، والخرز، والنحاس المصنوع، والخزف، في مقابل منتجات تلك البلاد والتي كان أهمها على الإطلاق الذهب، والرقيق الأسود وكلتا هاتين السلعتين كانتا تشقان طريقهما من إفريقية وباقي بلاد المغرب إلى أوروبا وشرق العالم الإسلامي بعد سد حاجة السوق المحلي منهما، وكلتاهما كان لهما أهمية بالغة في العالم القديم، ومع أنه قد سبقت الإشارة إلى هذا

---

١) انظر المالكي: المصدر السابق ج١ ص١١٧.
انظر الدباغ: المصدر السابق ج٢ ص٣٣٧.
القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٣١.

الموضوع، إلا أنه لا ضير من التعرض للذهب ثانية بإيجاز.

فمن المعروف أنه منذ انهيار القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الخامس للميلاد فقد الذهب دوره في نظام النقد في غرب أوروبا لندرته فيها لتحل الفضة التي أصبحت تضرب منها العملة النقدية المتداولة في تلك المنطقة، وماثلتها في ذلك الإمبراطورية الفارسية التي كانت وحدة النقد المتداولة فيها هى الدرهم الفضي، وبقي الدينار الذهبي وقفاً على الدولة البيزنطية التي كان يصلها الذهب من مصر عبر الطريق القديم إلى قلب القارة الأفريقية ومن مناجم الأورال في الشمال.

وحينما تدفق ذهب السودان الغربي عبر الطريق الجديد إلى إفريقية وباقي بلاد المغرب ومنها إلى المشرق وأوروبا الغربية وأصبح المسلمون سادة الذهب في العالم، تمكن العالم الإسلامي من إحراز التفوق الاقتصادي على الأقطار الأخرى الواقعة خارج نطاقه بفضل ما امتلكه من ثروة ذهبية ضخمة ولما تمتعت به العملة الإسلامية من اعتراف عالمي، مما جعل العديد من الكتاب يقولون أن هذا الحدث جعل الفتوحات الإسلامية (تحتل أولاً مكانة بارزة في التاريخ الاقتصادي العالمي بين غزوات الإسكندر التي فتحت للعالم اليوناني ذخائر مملكة فارس، ومناجم آسيا، والغزوات الإسبانية التي مكنت أوروبا من ذهب وفضة القارة الأمريكية، وتبرز ثانياً ظاهرة جديدة في تاريخ الدورة النقدية حيث لم يسجل قبل الدينار الإسلامي عملة شملت دورتها الشرق، ومنطقة البحر الأبيض المتوسط، وأوروبا في نفس الوقت)[1]، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أعاد ذهب السودان الغربي المتدفق إلى أوروبا الغربية عبر بلاد المغرب لهذا المعدن

---

(١) د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٣٣، وانظر أيضاً خريطة حركة الذهب في هذا المرجع ص٢٢٥.

النفيس مكانته السابقة في نظام النقد الأوروبي إذ عادت العملات فيها تسك منه، مما أكسبها الثقة وبالتالي أوجد أساساً متيناً لاقتصادها.

وأما أهم صادرات إفريقية في التبادل التجاري مع الشمال والغرب فكانت بالإضافة إلى الذهب هي: الزيت، المنسوجات، الخزف، العنبر، العطور، السكر، الزبدة، اللحوم، الصوف، الجلود، الشمع، الحبوب، التمر، الزبيب، وتحصل بالمقابل على الفراء، والرقيق الأبيض، والأخشاب، وهكذا كانت تجتمع في أسواقها منتجات الشمال والجنوب، ومنها يعاد تصديرها إلى مختلف الجهات مما أكسبها حركة دائمة.

وأما بالنسبة لتنظيم هذه الأسواق، فلم تختلف أسواق المدن في المغرب الإسلامي عن مثيلاتها في مشرقه، إذ كانت تسمى إما باختصاصها التجاري في معظم الأحيان، أو تنسب إلى مؤسسها أو إلى فئة اجتماعية معينة، إلا أن ما يلفت الانتباه بالنسبة للقيروان التي كانت المركز التجاري الأول في إفريقية في الفترة التي نبحث فيها هو السوق التجاري الرئيسي فيها الذي بلغ طوله ما يزيد عن الميلين أي ما يربو عن الثلاث كيلومترات، وكان يسمى سماط سوق القيروان وقد حفت به المتاجر والحوانيت في كلا جانبيه، وأما الأسواق الأخرى فكان أشهرها: سوق البزازين، سوق السراجين، سوق الزجاجين، سوق النخاسين (البركة)، سوق الخرّازين، سوق القطانين، سوق الأحد، سوق الغزل، سوق الخزازين، سوق الجزارين، سوق اليهود[1] وغيرها، الأمر الذي يقدم لنا دليلاً واضحاً على هذا الازدهار التجاري.

وكان لا بد من فرض رقابة شديدة على هذه الأسواق للحيلولة دون

---

١ انظر د. الحبيب الجنحاني: المرجع السابق ص٦٧ وما بعدها.

الغش في السلع والتلاعب في المكاييل والأوزان والأسعار، فكان الولاة أنفسهم يتولون هذه المهمة، ثم أوكلت للقضاة منذ تولى الإمام سحنون قضاء إفريقية، وبذلك كانوا يقومون بمهام المحتسب بالإضافة إلى القضاء، فيجعلون الأمناء في الأسواق لمساعدتهم في هذه الرقابة، حيث يجري تأديب من تثبت عليه مخالفة الشرع بالعقوبة التي يستحقها من تعزير أو جلد أو تغريم أو نفي من الأسواق، ومع أن هذا الإشراف من القضاة على الأسواق بدأ في وقت سابق على عهد الأمير إبراهيم، إذ أن ولاية الإمام سحنون للقضاء كانت في سنة ٢٣٤هـ، إلا أن قضاته مع تشددهم في هذه الرقابة فرضوا من الإجراءات المستحدثة ما كان كفيلاً بمواجهة التطور الذي حدث في هذا العهد كتلك التي اتخذها ابن طالب في سنة ٢٧٠هـ والتي سبقت الإشارة إليها، والذي كان قد حصل على تفويض مطلق من الأمير إبراهيم في إجراء ما يراه مناسباً بهذا الشأن، وفي ذلك يقول القاضي عياض: (وكان ابن الأغلب قد فوض إليه النظر في الولاة والجباة والعزل والولاية وقطع المناكير)[١]، وقد بلغ من اهتمام القضاة والفقهاء بهذه الرقابة أن قام بعضهم بتصنيف المؤلفات عن هذا الموضوع مثل يحيى بن عمر (ت سنة ٢٨٩هـ) ، الذي ألّف في ذلك كتابه المسمى (أحكام السوق)[٢] في تلك الفترة.

وهكذا نرى أن إفريقية قد عاشت في هذا العهد في ظل ازدهار اقتصادي شمل الحكومة والرعية، مما فتح المجال أمامها لدفع الحركة الحضارية فيها دفعة قوية إلى الأمام.

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٢٣.

(٢) انظر كتابه (إحكام السوق)، المنشور في تونس سنة ١٩٧٥.

أعماله العمرانية:

يجمع المؤرخون على أن إفريقية شهدت في عصر دولة الأغالبة تطوراً عمرانياً كبيراً، وإذا كان الكثير من أمراء هذه الدولة عرفوا بشغفهم بالبناء والتعمير، فإن الأمير إبراهيم يأتي في طليعتهم، لما قام به من أعمال عمرانية ضخمة تعتبر إحدى مفاخر الدولة المذكورة في هذا المجال، كما تعتبر خير دليل على جهوده في هذا التطور، إذ لم يلبث بعد تولّيه الحكم إلاّ فترة قصيرة حتى شرع في بناء مدينة (رقادة) على بعد ثمانية أميال جنوب القيروان، والتي أعجب الجغرافيون والرحالة المسلمون بحسن موقعها ودقة تخطيطها وهندستها وجمال قصورها وبساتينها وطيب هوائها أيّما إعجاب، فقد وصفها البكري بقوله: (وأكثرها بساتين وليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة . . . فإن من دخلها لم يزل ضاحكاً مستبشراً من غير سبب)[١]، ويكرر ياقوت عنها نحو هذا القول، ويذكر عدة روايات عن سبب تسميتها بهذا الاسم لايتسع المجال لذكرها[٢].

بدأ الأمير إبراهيم في بناء هذه المدينة التي بلغ دورها أربعة وعشرين ألفاً وأربعين ذراعاً[٣] في سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦م، وشيد بها قصوراً عديدة ودوراً كثيرة ومسجداً جامعاً، واختطَّ فيها الأسواق، وزودها بالمنشآت الاقتصادية والاجتماعية الكثيرة، وزينها بالحدائق الغناء والبساتين العديدة التي غرسها جميعاً بأنواع الأشجار والرياحين المحلية والمستجلبة، وأجرى إليها المياه من مسافاتٍ بعيدة لتتجمع في صهاريج ضخمة ثم توزع منها إلى

---

١) البكري: المصدر السابق ص٢٧.

) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٥٥.

ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٥٥.

مختلف منشآتها وحدائقها وبساتينها في نظام بديع، ثم انتقل إليها بعد ذلك من العباسية مع أهل بيته وحاشيته ورجالات دولته ودواوين حكومته، ونقل إليها الكثير من التجار والصناع ورجال العلم، ولم يفتأ يتعهدها بالزيادة والتنظيم والتحصين كلما تطلب الأمر ذلك، فأدار حولها سوراً وخندقاً وجعل لها أبواباً حديدية محكمة الصنعة فيما بعد، وكان من أشهر القصور التي شيدها فيها قصور (بغداد) و(المختار) و(الفتح)[1] و(الصحن)، وأسس في أحد مبانيها جامعة (بيت الحكمة) التي سنعود لذكرها بعد قليل.

وسرعان ما اتسعت هذه المدينة بوصفها العاصمة الجديدة بما أضيف إليها من منشآت جديدة، وازدياد أسواقها وما ألحق بها من فنادق وحمامات ودور للعلم، وازدياد مستمر في عدد سكانها حتى غدت في سنوات قليلة من أعظم مدن إفريقية عمراناً ومن أكثرها نشاطاً.

ولم تتوقف عن هذا التوسع بعد الأمير إبراهيم، وإنما واصل خليفتاه العناية بها فأضافا إليها عدة منشآت جديدة كان أهمها ما عمره فيها الأمير زيادة الله الثالث آخر أمراء الأغالبة وحفيد الأمير إبراهيم الذي حفر بها صهريجاً ضخماً طوله خمس مئة ذراع وعرضه أربع مئة، وأجرى إليه ساقية ضخمة تصب فيه على مدار الساعة، في حين يخرج الماء الزائد عن سعته من قناة أخرى تتجه إلى البساتين لريها، ولضخامة هذا الصهريج الذي هو عبارة عن بحيرة اصطناعية سماه (البحر)، وبنى فيه قصراً على أربع طبقات سماه (العروس)، أنفق عليه مئتين واثنين وثلاثين ألف دينار، حتى أصبحت

---

(١) انظر ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١١٧، ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ق٣ ص٢٧ حاشيه ١، حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص٨٨، كذلك ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، ق١ ص١٩٤.

بهذه الزيادات المتواصلة أكبر من القيروان نفسها (٥)[١]، وهكذا لم تزل دار الملك لأمراء بني الأغلب حتى انقضاء عهد دولتهم، كما سكنها عبد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين أيضاً، إلى أن انتقل عنها إلى المهدية في سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م[٢].

وبالإضافة إلى رقادة، أنشأ الأمير إبراهيم قصوراً أخرى بمدينة تونس لسكناه، حينما انتقل للأقامة بها في سنة ٢٨١هـ / ٨٩٤م بعض الوقت[٣] عندما خالفت عليه في ثورتها الثانية، كان من ضمنها القصبة[٤]. ويذكر المالكي أنه بناء على طلب أبي الأحوص المكفوف أحد كبار فقهاء المالكية في إفريقية في هذا العهد وأحد زهّادها المعروفين كما سيأتي ذكره، زاد في المسجد الجامع بسوسة السقوف العالية الثلاث التي تلي القبلة، وأنشأ فيها مصلى العيدين، وأجرى إلى وسط تلك المدينة ساقية توصل مياه الشرب من مكان بعيد بخارجها[٥].

ولم يقتصر نشاطه العمراني على العمارة المدنية، بل تعداه إلى العمارة الحربية، فقد اهتم بتحصين سواحل إفريقية، فبنى العديد من الحصون المعروفة بالرباطات (الربط، أو الأربطة) في أماكن عديدة منها[٦]، لتدعيم سبل الدفاع عنها تحسباً من هجمات الأسطول البيزنطي وسفن القراصنة

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ص٩٠.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٨٤.

(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣.

(٤) ابن أبي الضياف: المصدر السابق ج١ ص١٤٥.

(٥) المالكي: المصدر السابق ص٢٩٢ وما بعدها. انظر كذلك القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٠٢.

(٦) ابن الاثير: المصدر السابق ج٦ ص٥، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣.

الأوروبيين، الذين كانوا يغيرون عليها بقصد النهب والسلب والتخريب كلما وجدوا غرة وحيثما أمكنتهم الفرصة. كما زاد في تحصين مدينة سوسة بوصفها فرضة القيروان، والقاعدة الرئيسية للأسطول الأغلبي، فبنى سورها[1]، ورمم ما احتاج إلى ترميم من رباطاتها ومحارسها.

وجرى ميسورو الحال من الصلحاء في عهده على نهجه في بناء الرباطات والمحارس، من ذلك، ما يذكره القاضي عياض في ترجمته لسهل بن عبد الله بن سهل القبرياني حيث يقول عنه: (وكان كثير المال فعالاً للخير، بنى قصر الرباط على البحر بسوسة فأنفق فيه مالاً عظيماً، وكانوا أرادوا بناءه فأتوا يستعينونه في ذلك، فتولى جميعه، وقيل بل كان موضعه ربوة رمل كان محمد بن سحنون يجلس عليها بعد العصر مع أصحابه، فقال يوماً: وددت لو بني هنا قصر. (أي رباط) فقال له سهل: أنا أبنيه، فبناه وأنفق فيه نحو ألف مثقال)[2].

النهضة العلمية:

شهدت الحركة العلمية في عهد الأمير إبراهيم نهضة شاملة، فقد تنوعت اتجاهاتها. وتعددت اختصاصات أعلامها حتى غطت كافة فروع العلم والمعرفة التي كانت معروفة في عصره، ولم تعد مقصورة على علوم الدين

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٣.

(٢) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣١٢ وما بعدها.
ولتوضيح ما ورد في هذا النص عن الفقيه محمد بن سحنون نقول: أنه كان رحمه الله يرابط في رباط سوسة للجهاد طوال فصل الصيف معظم سنيّ حياته، كما جرت بذلك عادة الفقهاء والصلحاء والزهاد والمجاهدين من أهل افريقية بل ومن أقطار المغرب الأخرى للدفاع عنها ضد هجمات الأساطيل المعادية. وقلما وجد أحد من هذه الفئة عصرئذ لم يرابط في أحد رباطاتها فترة من حياته.

واللغة كما كان الأمر من قبل، وسارت في هذه الاتجاهات بخطى حثيثة إلى الأمام مما جعلها تواكب مثيلاتها في المراكز العلمية بالمشرق، بحيث لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا أن عهده كان العصر الذهبي لها في إفريقية الأغلبية، وهو ما يمثل صفحة مشرقة في تاريخ هذا الأمير المتعدد المواهب والمتنوع الاهتمامات، ويضعه في مصاف كبار رعاة العلم ومشجعيه في التاريخ.

وأول ما يذكر في هذا المجال شغفه هو نفسه بالعلم، فقد ولع منذ وقت مبكر من حياته بطلبه وبمصاحبة العلماء الأجلاء، فتذكر الروايات أنه أقام في صقلية فترة من صباه، تعلم أثناءها اللغة اللاتينية الدارجة (الرومانسية) التي عرفت في غرب أوروبا في العصور الوسطى حتى أجادها[1]. وكان فيما بعد كثيراً ما يتحدث بها مع فتيانه الصقالبة بخاصة إذا أراد أنْ يخفي عن جلسائه ما يقول، وفي ذلك يقول القاضي عياض في ترجمته للقاضي ابن طالب في رواية للفقيه حمديس القطان، أنه أثناء مناقشة بين الأمير إبراهيم وحمديس المذكور عن التركة، تكلم الأخير بما لا يوافق هوى الأمير في حضور (بلاغ) فتاه الصقلبي (فقام إليَّ بلاغ الخادم مغضباً ليهم بي. فكلمه الأمير بالصقلية فانكفّ)[2]. كما يقول أيضاً في ترجمته لابن البناء القاضي إثر عزله عن قضاء قصطيلية وترحيله إلى رقادة لمقابلة الأمير إبراهيم حيث دارت المناظرة بينه وبين القاضي ابن عبدون بهذا الشأن في مجلس الأمير (فرفع إبراهيم رأسه إلى فتاه بلاغ، فقال له بالصقلبية: أرى هذا الرجل - يعني ابن البناء - يستحق أن تنزع قلنسوة

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٢٢.
(٢) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٢٩.

القاضي وتوضع على رأسه)[1].

وما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام هو أن إجادته لهذه اللغة فضلاً عن دورها في ثقافته، كان لها دور آخر لا يقل في أهميته عن الأول هو مساعدته في التعرف على مشاكل رعاياه من الأوروبيين في صقلية وجنوب إيطاليا وتفهم مطالبهم بوصفها اللغة التي يحسنونها، وليس هؤلاء فحسب، وإنما أيضاً المتكلمين بها في إفريقية ذاتها، إذ أنها كانت هي اللغة الشائعة في بعض نواحيها مثل بلاد الجريد، والتي بقي أهلها يتحدثون بها حتى زمن الإدريسي في أوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر للميلاد).

وإلى جانب معرفته اللغة اللاتينية، اكتسب حصيلة واسعة في علوم الدين واللغة والأدب كما كان يقرض الشعر، وما وصلنا من شعره يدل على موهبة جيدة لا تتوفر إلا في الشعراء المطبوعين، وبالإضافة إلى هذه العلوم النقلية، شغف بالعلوم العقلية والتجريبية فطلبها بهمة ونشاط، فأجاد العلوم الرياضية والفلك والفلسفة وغيرها من هذه العلوم، الأمر الذي مكنه من المشاركة الفعلية في مناظرة فحول العلماء فيها سواء تلك التي كانت تدور في مجلسه أو في (بيت الحكمة)، بالتعقيب أو التعليق والتوضيح أو الاستفسار وهو في كل ذلك يقدم البرهان القوي على رسوخ قدمه في مواضيع تلك المناظرات.

وقد حفظ لنا المالكي نموذجاً للمناظرات التي كانت تدور في (بيت الحكمة) بحضوره نورد فيما يلي بعضاً منها لبيان مكانته العلمية، إذ يقول في تعريفه بأبي عثمان سعيد الحداد أحد كبار علماء الكلام في القيروان

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٧٢.

وكبير المدافعين عن موقف أهل السنة من قضية خلق القرآن[1]، أنه بعد أن استهلت المناظرة بين المذكور وعبد الله بن الأشج وغيره من الحضور القائلين بخلق القرآن وبسط حجج الطرفين. ثم إدلاء الأمير إبراهيم برأيه في هذا الموضوع: (قال: (أي سعيد الحداد): ثم جرى ذكر تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام - فقلت: ممن سمع موسى الكلام؟ قال ابن الأشج: من الشجرة، قلت: من ورقها أو من لحائها؟ قال أبو عثمان: ووالله ما درى أحد من أهل المجلس مرادي فيما ظهر لي. إلاّ الأمير، فبدر فقال لابن الأشج: اسكت ويلك! خوفاً أن يجيب فيجيب عليه الكفر. قيل لأبي عثمان: وما أردت - أصلحك الله - بهذا الكلام؟ فقال: لأنه كل من صرح فقال بأنه من الشجرة على الحقيقة كفر، وزعم أن الله لم يكلم موسى وأنه لم يفضله بكلامه...)[2]، ولا شك في أن من يتّتبع هذه المناقشة يتأكد لديه سعة اطلاع الأمير إبراهيم على الفلسفة والمنطق وأساليب الجدل، ودراية بعلم الكلام وأساليب المتكلمين المسلمين.

وأما معرفته بعلم الفلك والتنجيم فقد بلغ فيها الغاية، يؤكد ذلك ما ذكره الزبيدي في ترجمته لإسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم، إذ يقول: (وكان إبراهيم ينتحل علم النجامة)[3]، أي الفلك المبني على أسس علمية صحيحة، فكان يباحث فيه أعلام هذا العلم في دولته سواء من أهل إفريقية أو الوافدين إلى بلاطه من مختلف أقطار العالم الإسلامي، والذين بسبب

(١) انظر ترجمته في الخشني: طبقات علماء افريقية، المالكي: المصدر السابق. كذلك حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٥٨، وانظر ترجمة ابن الأشج في الدباغ: المصدر السابق ج٢ ص٢٣٢.

(٢) انظر المالكي: المصدر السابق، ترجمة سعيد الحداد، كذلك حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢١٤.

(٣) الزبيدي: المصدر السابق ص٢٤٢.

ذلك نالوا حظوة عنده، مثل إسماعيل بن يوسف الآنف الذكر. وحمديس المنجم، وعثمان بن سعيد الصيقل وغيرهم. إلى حد أنه خصص خزائن في (بيت الحكمة) لحفظ الآلات الفلكية مثل الاسطرلابات والمقنطرات والجيوب وغيرها من أدوات البحث وحساب سير الكواكب ورصدها وتحقيق الأوفاق وضبط الأطوال والعروض مما يستعمل في هذا العلم[1].

لذلك، فقد حفزه هذا الشغف بالعلم على دفع الحركة العلمية في إفريقية دفعة قوية إلى الأمام، واتجهت جهوده في هذا المجال عدة اتجاهات، أولها المضي قدماً في رعاية حركة العلوم الدينية واللسانية التي كانت مزدهرة وقتئذ فيها، وثانيها منح العلوم العقلية والتجريبية الناشئة أقصى ما يستطيع من عنايته لتوازي نظيرتها الأولى في النشاط والأزدهار وذلك باستجلاب الكتب من مختلف المراكز العلمية بخاصة من المشرق الإسلامي، وتأسيس مركز للترجمة، واستقطابه للعلماء في مختلف التخصصات للالتحاق ببلاطه، وأخيراً وليس آخراً إنشاء مركز متخصص في هذه العلوم وتدريسها.

العلوم الدينية واللسانية:

من المعروف أن القيروان أصبحت منذ تأسيسها المركز الرئيسي لدراسة علوم الدين واللغة في المغرب، وأن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم الذين رافقوا جيوش الفتح أو وفدوا إليها فيما بعد وأقاموا فيها هم الذين أسسوا مدرستها الفكرية التي كان قوامها هذه العلوم شأنها في ذلك شأن المراكز الفكرية الأخرى في المشرق وقتئذ، وقد سارت الأجيال المتعاقبة التي أخذت عنهم وعن تلاميذهم ومن تلاهم في تسلسل مُطّرد على نهجهم

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص١٩٧.

في الاهتمام بهذه العلوم دراسة وتدريساً، فكان كل جيل منها يضيف لبنة جديدة في بناء هذه المدرسة حتى غدت القيروان مدينة العلم في المغرب الإسلامي، يقصدها الطلاب من مختلف بقاعه للأخذ عن شيوخها، وليس ذلك فحسب، وإنما أصبحت أيضاً أحد المراكز الهامة لهذه الدراسات في العالم الإسلامي بأسره.

ونظراً لأن معظم الأجيال الأولى من طلاب العلم الأفارقة الذين ارتحلوا إلى المشرق للحج والاستزادة من العلم وأخذوا عن الإمام مالك رضي الله عنه في المدينة ثم عن تلاميذه فيها وفي مصر من بعده، ولملاءمة مذهبه لعقلية المغاربة المحافظة، فقد انتشر هذا المذهب بجهودهم في إفريقية ثم في المغرب الإسلامي فيما بعد، حتى ساد فيه وتأصل ولم تعد المذاهب الأخرى التي كانت تتسرب إلى تلك المنطقة تقوى على منافسته، وكان من بين الذين لهم دور كبير في ترسيخه فيه الإمامان أسد بن الفرات، وسحنون بن عبد السلام، فقد بلغ عدد الذين أخذوا عن الأخير ما يزيد عن السبع مئة عالم انتشروا في مختلف أقطاره وبثوه فيها.

وعلى ذلك أصبحت القيروان منذئذ (أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث للهجرة) هي المهد الثاني للمالكية حتى أصبح (حمى قصور زياد - المرابط بساحل إفريقية - يسمى دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك)[1].

وإلى جانب المذهب المالكي وصلت إلى إفريقية بعض المذاهب الأخرى. كان أهمها المذهب الحنفي من مذاهب أهل السنة ومذهبا الخوارج الإباضية والصفرية، ومع المذهب الحنفي الذي اتخذه الأغالبة

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٨٤.

مذهباً رسمياً لدولتهم أسوة بالدولة العباسية بوصفهم ولاة لها، أخذت تتسرب إليها نظريات وآراء المعتزلة والتي كان من أهمها قضية خلق القرآن، والإيمان، وأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته مما أثار الجدل بين فقهاء هذا المذهب والمالكية، ومع أن الكثرة العددية بين الفقهاء كانت للمالكية بطبيعة الحال، إلاّ أن الأحناف كانوا يتمتعون بمساندة الدولة، ولم يلبث هذا الجدل أن تطور إلى خلاف حاد بين الفريقين قبيل تولي الأمير إبراهيم الحكم، وقد انعكس هذا الوضع على المالكية أنفسهم إذ بتأثير تلك الآراء اختلف تلاميذ الإمام سحنون في تلك الآونة أيضاً في مسألة الإيمان وانقسموا إلى فريقين (السحنونية) و(العبدوسية) كما سبقت الإشارة إليه[1].

لذلك، رأى الأمير إبراهيم الذي تولى الحكم، والخلافُ على أشده بين هذه الأطراف، أنه لا بد من أن يعمل على احتوائه قبل تفاقمه، فهو بالرغم مما كان يفرضه عليه منصبه الرسمي وثقافته ومعرفته بالعلوم الفلسفية بخاصة من تأييد الأحناف، إلاّ أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير عليه لأن غالبية رعيته من المالكية، مما يسهل الأمر على فقهاء هذا المذهب لإثارتها عليه، إذا لمسوا منه ذلك، وبناء عليه، لزم جانب الحياد على ما يبدو، فأخذ يختار قضاته من أتباع كلا المذهبين مع مراعاة النسبة العددية فكان قضاته المالكية أكثر بكثير من الأحناف، وكما ربطته علاقة طيبة ببعض

---

(١) لخص ابن غافق التونسي هذا الخلاف في مسألة الإيمان لمحمد بن عبد الحكم حينما التقى به في مصر وسأله عن هذا الموضوع بإيجاز شديد على النحو التالي: قال قوم: نحن مؤمنون عند الله مذنبون، وقال قوم. نحن مؤمنون، ولا ندري ما نحن عند الله- فقال: ما قال فيها محمد بن سحنون؟ فقال له: مؤمنون عندالله فقال: دعني بهاذين، فعدت إليه فقال: الصواب ما قال محمد بن سحنون. (انظر القاضي عياض: المصدر السابق ص٣١١).

الأحناف مثل ابن الأشج وابن عبدون، وثّق الروابط بينه وبين كثير من كبار فقهاء المالكية وزهادهم مثل أحمد بن معتب بن أبي الأزهر، الذي كان يكتب إليه قائلاً: (إلى أخي في الإسلام وشقيقي في المحبة)[1]، وعبد الجبار السرتي الذي بلغ من تقديره له أنه كان يخرج من مجلسه لتشييعه وفي ذلك يقول القاضي عياض: (وخرج من عند الأمير إبراهيم، وكان يجله ويكبره، فشيعه إلى أن ركب دابته وأصلحت عليه ثيابه)[2]، وابن طالب القاضي، وعيسى بن مسكين، ثم أبو الأحوص الكفيف الزاهد، الذي كان يزوره في بيته بمدينة سوسة (فإن وجده يطحن جلس (أي الأمير) على التراب، وأن وجده يأكل جلس على جلد المطحنة، لأنه لم يكن عنده حصير في البيت ولا غيرها، وكان إذا عرض للمسلمين حاجة كتب إليه بالفحمة على شقف)[3]، وكان ينفذ لهم مطالبهم، وفي ذلك يقول القاضي عياض أيضاً أنه سأل أبا الأحوص الآنف الذكر ذات مرة: (هل لك حاجة؟ فامتنع؛ فعزم عليه، فقال: ثلاث حوائج - قال: هي مقضية، فما هي؟ فطلب منه الزيادة في الجامع لضيقه على الناس، وإجراء ساقية من خارج المدينة إلى مواجلها، وإخراج من بالسجن، فأجابه)[4].

كما كان يستهديهم الدعاء، ويتقبل نصحهم ومواعظهم بصدر رحب، وليس ذلك فحسب وإنما يصبر على ما يجبهه به البعض من غليظ القول، مثل أبي الأحوص الآنف الذكر الذي أرسل إليه رسالة أملاها على بعض أهل سوسة يأمره فيها بالمعروف وينهاه عن المنكر بأسلوب عنيف، كان

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٥٩.

(٢) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٩٦.

(٣) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٠١ وما بعدها.

(٤) القاضي عياض: المصدر السابق ص٣٠٢.

مما جاء فيها: (يا فاسق؟ يا جائر؟ ياخائن؟ قد حِدْتَ عن شرائع الإسلام، وعن قريب تعاين مقعدك من جهنم، وسترد فتعلم)[1]، فأجابه الأمير بقوله: (عذرناك لفضلك ودينك)[2]، الأمر الذي مكن هؤلاء العلماء بوصفهم مصابيح الأمة وحراسها بما عرفوا به من براعة في الفقه، وورع صادق، وزهد في الدنيا، وجرأة في الحق، ودماثة أخلاق، من مواصلة دورهم التاريخي الهام المتمثل في رقابتهم على الدولة من ناحية، وربطهم العلم بالجهاد من ناحية ثانية، ومواصلة نشاط حركة العلوم الدينية واللغوية بسهولة ويسر وفي جو من الحرية المطلقة في هذا العهد من ناحية ثالثة.

وأما دور الأمير إبراهيم في هذا النشاط، فإنه تمكن بحكمته وحسن تدبيره وسعة علمه تطويق الخلافات الفقهية هذه في إطار الجدل الفكري والمناظرة العلمية فحسب، أيْ أنه حصرها في نقاش علمي بحت بين علماء متخصصين ضمن مناظرات تعقد في مجلسه أو في أروقة العلم بجامعة (بيت الحكمة) كتلك المناظرة التي دارت بين سعيد الحداد من المالكية وابن الأشج وأصحابه الأحناف والتي أشرنا إليها سابقاً، وهو بذلك ألغى دور العامة في هذه الخلافات وحال دون أن تكون طرفاً فيها، الأمر الذي جعل حدتها والنفور بين الناس يأخذان في التراجع وبالتالي تتلاشى آثارها السلبية بالتدريج، دون أن يؤثر ذلك سلبياً على زخم نشاط البحث العلمي، إذ واصلت الفئة المثقفة نشاطها في البحث والدراسة لاستنباط الحجج لدعم وجهة نظرها في هذه المناظرات، أي أن ذلك كان حافزاً لهذه الفئة المنتجة للعلم والمعرفة لمضاعفة جهودها في هذا المجال، سواء مشافهة تروى أو تدون في مؤلفات تتداول، وتبعاً لذلك، تميزت هذه الفترة بنشاطها الجم

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣٠.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣٠.

في كلا الاتجاهين.

ففي الاتجاه الأول، علاوة على المناظرات، واصل الفقهاء والعلماء عقد حلقات الدرس في المساجد والرباطات، والذين كان من أشهرهم في هذا العهد: ابن طالب، وعيسى بن مسكين، وعبد الرحمن بن عمران الملقب بالورقة، وأحمد بن معتب بن أبي الأزهر، وسليمان بن سالم القطان، ويحيى بن عامر بن يوسف الكناني، وأحمد بن أبي سلمان المعروف بالصواف، وجبلة بن حمود الصدفي، وأبو عياش أحمد بن موسى بن مخلد، وعبد الجبار السرتي، وأبو الأحوص الكفيف، وعبد الله بن غافق التونسي وسعيد الحداد الذين سبق ذكرهم وغيرهم ممن تضمنته كتب التراجم والطبقات من الذين عاشوا في هذه الفترة، حيث كان الطلاب يأخذون عنهم ويدرسون عليهم ما كان متداولاً من أمهات الكتب وقتئذ سواء كانت من تأليف فقهاء إفريقية (كالأسدية) التي ألفها أسد بن الفرات الذي كان متبحراً في كلا المذهبين المالكي والحنفي، ثم (المدونة) للإمام سحنون، وكتب ابنه محمد التي زادت عن الخمسين كتاباً وغيرها، أو مما أُتيَ به من المشرق مثل (الموطأ) للإمام مالك، وكتاب ابن المواز في الفقه الذي وصل إلى إفريقية في تلك الفترة، وكان أبو القاسم السدري هو أول من جاء به وقتئذ[1]، وغيرهما الكثير مما أتى به طلاب العلم والرحالة عند عودتهم وتجار الكتب لرواج تجارتها آنذاك.

وأما بالنسبة للاتجاه الثاني، فقد عكف الكثير من هؤلاء العلماء على تصنيف المؤلفات والتي تعتبر من أهم المصادر الفقهية مثل يحيى بن عمر الكناني الآنف الذكر الذي ألف كتباً عديدة من أشهرها: كتاب الرد على الشافعي، وكتاب اختصار المستخرجة المسمى بالمنتخبة، وكتبه في أصول

---

(١) انظر الدباغ: المصدر السابق ج٣ ص٦ وما بعدها.

السنة: مثل كتاب الميزان، وكتاب الرواية، وكتاب الوسوسة، وكتاب أحمية الحصون، وكتاب فضل الوضوء والصلاة، وكتاب النساء، وكتاب الرد على الشكوكية[1]، وكتاب الرد على المرجئة، وكتاب فضائل المستنير والرباط، وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب[2]، ومثله عبد الله بن غافق التونسي الآنف الذكر أيضاً الذي كان من أشهر مؤلفاته رسالة في الإيمان تضمنت آراءه في الرد على العبدوسية[3]، والتي انتشرت بين الفقهاء، وطلاب العلم في إفريقية آنذاك انتشاراً كبيراً، ثم عبد الله بن الوليد الذي ألف كتباً عديدة أيضاً، وأبو العرب التميمي صاحب كتاب (طبقات علماء إفريقية) والذي كان أول كتاب يؤلف في إفريقية في موضوعه، وغيرهم الكثير[4].

ولم يقتصر نشاط حركة هذه العلوم على الرجال بل تعداه للنساء، فقد نبغ في هذا العهد عدة منهن كان لهن باع طويل في هذا المضمار، ونذكر منهن خديجة بنت الإمام سحنون التي كانت (عاقلة عالمة ذات صيانة

---

(١) يعني بالشكوكية فريق العبدوسية وهو اللقب الذي أطلقه عليهم خصومهم السحنونية لقول ابن عبدوس في مسألة الإيمان: أدين بأني مؤمن عند الله في وقتي هذا، ولا أدري ما يختم لي به، فقال عنه السحنونية أنه يشك في نفسه، فاتهموه بأنه يقول في ذلك: لا أدري وأرجو أن أكون مؤمناً إن شاء الله، فلقبوه وأنصاره بالشكوكية، في حين نفى هو هذه التهمة عن نفسه.

(٢) كان ابن القاسم وأشهب من أشهر تلاميذ الإمام مالك في مصر.

(٣) القاضي عياض: المصدر السابق ص٢٦٣.

(٤) انظر الفهرست الذي ألحقه الدكتور محمد الطالبي بالمصدر السابق (تراجم أغلبية من المدارك للقاضي عياض) والذي تضمن كثيراً من أسماء المؤلفات التي صنفت في هذه الفترة والتي تركنا ذكرها خشية الإطالة (ص٥٣٥وما بعدها).

ودين)[1].

كما وصفها الدباغ بقوله (وكانت من خيار الناس)[2]، وكان أبوها يستشيرها في مهمات أموره، وكذا كان يفعل أخوها محمد بعد وفاة أبيها، وكانت نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين ويقتدين بها لما تميزت به من علم واسع وعقل راجح، وقد عزفت عن الزواج ونذرت نفسها للعبادة والعلم إلى أن توفيت في حدود سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م[3]، ثم مهرية بنت الحسن بن غلبون الأغلبية، والتي كانت إحدى أميرات الأسرة الحاكمة، وقد نشأت في قصور أسرتها برقادة، ونالت حظاً وافراً من العلم في تلك البيئة الراقية بخاصة علوم اللغة والأدب، وتفتحت قريحتها الشعرية حتى أصبحت من مشاهير شعراء عصرها، ومع أنه لم يصلنا من شعرها إلاّ القليل أشهره قصيدة لها في رثاء أخيها أبي عقال الذي توفي بعيداً عن وطنه في سنة ٢٩١هـ / ٩٠٤م[4]، إلاّ أن هذا القليل يدل على موهبة ممتازة وثقافة عالية.

وهكذا ازدهرت حركة العلوم الفقهية واللسانية في هذا العهد ازدهاراً كبيراً لم تشهد مثله في إفريقية من قبل، كما انحسرت موجة النزاع بين المالكية أنفسهم من ناحية، وبينهم وبين الأحناف وأتباع المذاهب الأخرى من ناحية ثانية، ولعل انتشار الدعوة الفاطمية في أواخر عهد الأمير إبراهيم كان له أثره القوي في ذلك، إذ أخذت أنظار هؤلاء العلماء جميعاً على اختلاف مذاهبهم وميولهم الفكرية تتجه للعمل على مقاومتها.

---

(١) القاضي عياض: المصدر السابق ص١٠١.

(٢) الدباغ: المصدر السابق ج١ ص٨٤.

(٣) انظر حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات ص٤٧ وما بعدها.

(٤) انظر حسن حسني عبد الوهاب: شهيرات التونسيات ص٤٨وما بعدها.

العلوم العقلية والتجريبية:

وأما العلوم العقلية والتجريبية، فقد حظيت بالقدر الأوفى من عناية الأمير إبراهيم وتشجيعه لشغفه بها من ناحية، ثم لأنها لم تلق الاهتمام الكامل قبل عهده على المستويين الرسمي والشعبي، وبالتالي كانت في زمنه كالنبتة الناشئة تتطلب قدراً كبيراً من العناية من ناحية ثانية، فضلاً عن أنه لم يكن ينظر إليها بعين الرضا من الفقهاء في حين أن العلوم النقلية كانت قد تأصلت في إفريقية وكانت تلقى المساندة من معظم الطبقة المثقفة فيها بالإضافة إلى العامة من ناحية ثالثة، وعلى ذلك كان لا بد له من بذل جهود مضاعفة في سبيل بث هذه العلوم في بلاده والنهوض بها لتقف على قدم المساواة مع العلوم النقلية، فاتجهت جهوده في هذا السبيل تبعاً لذلك اتجاهات متعددة:

استجلاب الكتب:

حرص الأمير إبراهيم منذ توليه الحكم على استجلاب الكتب العلمية في شتى صنوف العلم والمعرفة من مضانّها، فمن المعروف أنه كان يرسل في كل عام- وأحياناً مرتين في السنة - سفارة إلى دار الخلافة ببغداد في مهمات سياسية، فكان يغتنم هذه المناسبات ويكلف رؤساء هذه البعثات والذين كانوا وقتئذ يختارون في الغالب ممن عرفوا بالذكاء والكياسة من رجالات الفكر، بالبحث عن نفائس الكتب في الأقطار التي يمرون بها كمصر وبلاد الشام والعراق وشرائها مهما غلا ثمنها سواء تلك التي صنفها علماء مسلمون أو المترجمة من علوم اليونان والسريان والفرس والهنود وغيرهم من الأمم السابقة[1]. فضلاً عما كان يحضره طلاب العلم المغاربة

---

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص١٩٦.

منها من المشرق عند عودتهم إلى بلادهم، وكذلك الوراق وتجار الكتب لاهتمامه بها ورواج سوقها عنده.

وهكذا، وعن هذه الطرق تم استجلاب الكثير من الكتب إلى إفريقية في عهده، ويكفينا ذلك دليلاً على أن الحركة العلمية في الدولة الأغلبية وقتئذ كانت على صلة وثيقة بالمراكز العلمية في مشرق العالم الإسلامي، وأقول في المشرق الإسلامي، لأن المراكز العلمية في مغربه لم تكن قد ظهرت بعد، أو على الأقل لم تكن قد لحقت بمراكز المشرق في حقل العلوم العقلية والتجريبية، الأمر الذي يشير إلى أن هذه الحركة كانت مواكبة وقتئذ لنظيرتها في المشرق مما أهّلها لتكون نقطة الانطلاق لهذه العلوم إلى غرب العالم الإسلامي بأسره.

ويؤكد هذه الحقيقة ما أورده الخشني في طبقاته في تعريفه بعبد الله بن الأشج الذي تقدم ذكره عن انتشار علم الكلام في إفريقية في ذلك العهد على نحو ما كان في العراق بفضل هذا الاتصال الفكري بين القطرين والذي كان للكتب المستجلبة دور فعال فيه بطبيعة الحال حيث يقول: (. . .وعبد الله بن الأشج كانت له رحلة ودخل العراق، وكان من أهل المناظرة والجدل، سمعت من يذكر عنه أنه لما قدم من بغداد دخل عليه أحداث القيروان للسلام، فقال لهم: ما الذي يتكلم فيه أهل القيروان اليوم؟ فقيل له: في الأسماء والصفات، فقال: إنما تركت الناس بالعراق يتواقفون في مسألتين: مسألة القدر، ومسألة الوعد والوعيد)[1].

ثم ما أورده كذلك في ترجمته لأبي إسحق المعروف بالعمشاء الذي كان

---

(١) انظر الخشني: المصدر السابق ص٢٢٠، وانظر كذلك حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢١٨.

من متكلمي القيروان المشهورين أيضاً حيث يقول: (ومن أعلام رجال الكلام في القيروان: أبو إسحق ويعرف بالعمشاء، يذهب إلى خلق القرآن ويناظر فيه المناظرة الشديدة، وله في ذلك داعية، وله لمّة وأصحاب وأحزاب في ذلك، يجالسونه ويختلفون إليه...)[1]، ثم ما جاء في مناظرة سعيد الحداد لعبد الله بن الأشج وأصحابه التي أشرنا إليها حيث يصف شيوع المناظرات الكلامية في إفريقية وقتئذ: (... فقلت له: أيها الأمير! إن ما استفاض من الخبر وانتشر دخل على البكر في خدرها، والبدوي في بدوه...)[2]، ثم ما يقوله الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من أنه أحصى من علماء الكلام والجدل من أهل إفريقية خلال القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين ـ ويغطي عهد الأمير إبراهيم فترة طويلة منها ـ نحو ثلاثين متكلماً ومن المعتزلة في العصر نفسه ما يقارب العشرين[3].

فإذا كان هذا هو شأن علم الكلام، الذي كان علماً ثانوياً في القيروان، لا يأبه له إلاّ القلة من المثقفين وطلاب العلم، إذ كان غير مرموق بعين الرضا من قبل الفقهاء والمحدثين فيها، ومنهم من كان ينظر إليه بتأفف يصل أحياناً إلى حد السخط عند البعض والبدعة عند بعض آخر، فما بالنا بالعلوم الأخرى؟ إنه مما لا شك فيه أنها كانت أوسع انتشاراً وأكثر نشاطاً، ومما لا شك فيه أيضاً أن الكتب المستجلبة كانت أحد المحاور الرئيسية لهذا النشاط.

---

(١) انظر الخشني: المصدر السابق ص٢٢١، وانظر كذلك حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢١٨- ٢١٩.

(٢) المالكي: المصدر السابق، ترجمة سعيد الحداد.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢١٩.

حركة الترجمة:

ولا تقل جهوده في ميدان الترجمة عن تلك التي بذلها في الميادين العلمية الأخرى، فقد كانت حاشيته تضم العديد من فتيانه الصقالبة الذين كانوا يحسنون اللغتين اللاتينية والعربية مثل (سواده النصراني)، و(بلاغ) الذي تقدم ذكره، و(شكر) وغيرهم والذين تبوأوا مناصب رفيعة في دولته، والذين نظرا لذلك، ولقربهم منه ولمعرفتهم بشغفه بالكتب العلمية يعتقد أنه كان لهم ثمة دور في استجلاب عدد منها من الولايات الأوروبية التابعة لإفريقية آنذاك وبصفة خاصة من صقلية لكسب رضا أميرهم، وربما المساعدة في ترجمة بعضها، الأمر الذي أدى إلى نشأة حركة الترجمة في إفريقية في هذا العهد، والتي لم تلبث أن تظافرت الجهود ودفعتها إلى الأمام.

ويذكر الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، أن الأمير إبراهيم نفسه تخير بعض المصنفات اللاتينية في العلوم الرياضية من بين تلك التي كان قد اطلع عليها، وكلف بعض الرهبان الصقليين المتكلمين باللغة العربية بترجمتها، وضم إليهم بعض اللغويين من أهل إفريقية، لتنقيح تلك الترجمات لغوياً وإعادة صياغة عباراتهم في قالب عربي صحيح رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس[١]، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تمت ترجمة كتب أخرى في مواضيع مختلفة، ويؤيد ذلك ما ذكره الحسن الوزان من أنه رأى في إفريقية ترجمة عربية لكتاب (بلينوس Plinus) الروماني في علم النبات[٢]، والذي يرى الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أنه لم يترجم في الأندلس لا في عهد عبد الرحمن الناصر ولا في عهد ابنه

---

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٠١.

(٢) الوزان: وصف إفريقيا الشمالية ص٦٣٣.

الحكم، وبالتالي يرجّح أنه ترجم في (بيت الحكمة) برقادة في عهد الأمير إبراهيم[١].

ومن المعروف أن هذا الكتاب كان ذا نفع كبير للعشابين (الصيادلة) في غرب العالم الإسلامي، إذ كان أحد مصادرهم الهامة التي اعتمدوا عليها، كما يعتقد أن الترجمة العربية لكتاب (تاريخ الأمم القديمة) المنسوب للقديس (جيروم Gerome) المتوفى سنة ٤٢٠م التي عثر عليها في المكتبة العتيقة بجامع عقبة بن نافع في القيروان، وهي نسخة فريدة لا ثانية لها في اعتقاده والتي كتب على هوامشها بعض الكلمات بالأحرف اللاتينية منها اسم المؤلف، أنها قد ترجمت في هذا العهد أيضاً[٢].

وبناء على ذلك، فإن حركة الترجمة على اللغة اللاتينية قد تأسست وازدهرت في هذه الفترة بفضل رعاية الأمير إبراهيم لها، وبلغ من اهتمامه بها أن خصص لها إحدى القاعات الرئيسة في جامعة (بيت الحكمة) كما سيأتي ذكره، كان يجتمع فيها المترجمون والنساخ واللغويون لهذا الغرض.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكتب التي ترجمت في المشرق إلى العربية من مصنفات علماء الأمم السابقة، كانت كلها عن اليونانية أو الفارسية أو السريانية أو السنسكريتية، ولم يترجم في أي من مراكزه العلمية المتعددة أي مصنف عن اللاتينية، وما تمت ترجمته عن هذه اللغة إلى العربية كان في إفريقية والأندلس، ولإفريقية وبصفة خاصة في عهد الأمير إبراهيم فضل السبق ومركز الصدارة في ذلك.

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٠٢.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٠٢.

اجتذاب العلماء:

وبالإضافة إلى ما تقدم، بذل الأمير إبراهيم جهوداً كبيرة في سبيل استقطاب العلماء على اختلاف تخصصاتهم إلى بلاطه من المشرق والمغرب على حد سواء، أما بالنسبة للمشرق، فقد كان يكلف مبعوثيه وسفراءه إلى دار الخلافة للاتفاق مع أكبر عدد ممكن من علماء العراق ومصر والشام، وبذل الوعود لهم وبسط آمالهم وإغرائهم بكافة المغريات لاجتذابهم للالتحاق بخدمة أميرهم، حيث كانوا يلاقون منه الرعاية والتكريم، والتقدير لعلمهم ومواهبهم حق قدرها، وكان من أشهر من وفد إلى بلاطه منهم تبعاً لذلك: إسحاق بن عمران الطبيب، وعثمان بن سعيد الصيقل، ومؤنس المغني الذين سنتعرض لذكرهم بعد قليل، وغيرهم.

وأما بالنسبة للمغرب، فقد اجتذب بلاطه أيضاً نخبة من أجلاء العلماء سواء من المشارقة الذين كانوا قد رحلوا إلى المغرب الإسلامي طلباً لحظهم، أو من المغاربة النابهين بخاصة من الأندلس، ومن هؤلاء: أبو اليسر الشيباني البغدادي، ومحمد بن أحمد بن الفرج البغدادي، اللذين استقرا في بلاطه بعد أن طوّفا في أرجاء العالم الإسلامي لما لقياه من رعاية وتكريم، واضطلعا بدور كبير في تطوير إدارة الدولة وتنشيط الحركة العلميةفي إفريقية، وكان هنالك عدد آخر على شاكلتهما ممن التحق بخدمة الأمير على هذا النحو.

ولم يقتصر الأمر على العلماء الوافدين من الخارج، بل استقطب الأمير أيضاً نخبة من كبار العلماء من أبناء إفريقية ذاتها كان من أشهرهم: إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم، شيخ الكيميائيين والفلكيين الأفارقة في عصره، ومحمد بن حيون المعروف بابن البريدي، وزياد بن خلفون الطبيب، وعبد الله بن الصائغ، وأبو بكر محمد بن أبي خالد بن الجزار،

وأخوه إبراهيم، وابن القمودى، وابن القيار، وعبدالله بن الأشج، وسعيد الحداد وغيرهم.

وهكذا ضم بلاط الأمير إبراهيم نخبة من خيرة علماء ذلك العصر حتى أصبح بهم صورة مصغرة من دار الخلافة في بغداد، والذين بجهودهم وجهود الكثيرين غيرهم من معاصريهم، وجهود تلاميذهم من بعدهم نهضت إفريقية النهضة العلمية الكبرى في هذا العصر، التي تشكل صفحة خالدة في تاريخ الدولة الأغلبية.

جامعة بيت الحكمة:

وتوج الأمير إبراهيم جهوده في رعاية الحركة العلمية في إفريقية بإنشائه أول جامعة بالمعنى المفهوم للجامعة في المغرب الإسلامي هي جامعة (بيت الحكمة) ، ويعتقد الأستاذ حسن حسني عبدالوهاب أن هذه الجامعة كانت في أحد قصرين: إما (قصر الصحن) أو (قصر الفتح) برقادة[1]، وأنها بنظامها وأقسامها كانت تشابه سميتها في بغداد مع حفظ الفارق بين دار الخلافة ومقر الإمارة بطبيعة الحال.

ومن المرجح أنها كانت تضم خمس قاعات (مجالس) فسيحة فرشت جميعها بالحصير واللبود الجميلة، ونضدت فيها الطنافس والمقاعد لجلوس المدرسين وكبار الزوار[2]، ونقول: من المرجح، لأنه لم يصلنا من المعلومات عن هذه الجامعة إلا النزر اليسير، ربما بسبب نظرة عدم الرضا التي كان يرمقها بها المتزمتون من أهل إفريقية لاشتغال الذين كانوا يؤمونها من مدرسين ودارسين بالعلوم العقلية، فأغفلت العديد من المصادر

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق١ ص٢٣٣ وما بعدها.

(٢) حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق١ ص١٩٤ وما بعدها.

التاريخية ذكرها نتيجة لذلك.

وقد أفردت إحدى هذه القاعات لتكون مكتبة، فاحتوت على عدد ضخم من الكتب نضدت في خزائن وأرفف خشبية في شتى الموضوعات العلمية والثقافية جلبت من الآفاق، وإلى جانب الكتب كانت هنالك خزائن تحفظ فيها الآلات الفلكية وأدوات البحث العلمي الأخرى[1].

وخصصت قاعة أخرى لأعمال النسخ والترجمة، إذ أنه كان مرخصاً للنساخ أن يقصدوا هذه الجامعة لاستنساخ ما تضمه مكتبتها من كتب سواء لأنفسهم أو لغيرهم بالأجرة، فكانت هذه القاعة تبعاً لذلك تعج بالنساخ في معظم ساعات النهار، وكثيراً ما كان الأمير إبراهيم يكلف بعض العلماء بمراجعة بعض الكتب وضبطها، فكان هؤلاء يقصدونها فيحتلون بعض أركانها لهذا الغرض، ومن الواضح أن أعمال الترجمة التي أنجزت في هذا العهد قد تمت في هذه القاعة، حيث كانت تقدم للمترجمين كل ما يحتاجونه من مساعدة، وتسخر لهم كافة الإمكانيات المتاحة ليتمكنوا من إنجاز المهام المنوطة بهم.

وأما القاعات الأخرى، فقد خصصت للدرس والمناظرة حيث كان الأستاذ يجلس على كرسي ويلقي محاضراته على الطلبة الجلوس بين يديه في صفوف تزيد أو تقل حسب شهرته، ونوع المادة العلمية التي يتناولها في تلك المحاضرات، وكان يساعد الأساتذه معيدون يتولون الرد على أسئلة الطلبة بالشرح والتوضيح.

دما كانت هنالك أوقات تخصص للعلماء تدور فيها المناظرة بينهم في مواضيع مختلفة بحضور الزوار وطلاب العلم، كثيراً ما كان يشهدها الأمير

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق١ ص١٩٩.

إبراهيم ويشارك فيها أحياناً كما تقدم ذكره.

وكان يشرف على نظام (بيت الحكمة) قيّمون مهمتهم السهر على ما فيها من كتب وآلات، والمحافظة عليها من التلف والضياع وصيانتها، ثم تقديم العون لمن يؤمها من العلماء والطلبة والزوار ومناولتهم ما يرغبون فيه من كتب أو آلات، ويرأس هؤلاء الرئيس أو الناظر الذي كان يختار عادة من بين الشخصيات العلمية المرموقة ويدعى (صاحب بيت الحكمة)، والذي كان بالإضافة إلى هذه المهمة الإدارية يضطلع بمهامّه العلمية من تدريس ومناظرة وبحث علمي، وكان أبو اليسر الشيباني أول من تولى هذا المنصب.

وأما الهيئة التدريسية، فقد اختارها الأمير إبراهيم من بين العلماء الذين ضمهم بلاطه، وقد عرف الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب بالعديد منهم[1]. وأول من يذكر منهم أبو اليسر الشيباني الذي كان حجة في العلوم النقلية وبخاصة اللغوية منها، إلى جانب براعته في العديد من العلوم العقلية وبخاصة الرياضيات حتى لقب بالرياضي، ولعل وصف الرقيق القيرواني له بقوله: (وكان ضارباً في كل علم وأدب)[2]، ما يقدم لنا فكرة واضحة عن علمه الغزير وسعة اطلاعه، وقد تخرج على يده جيل من الأدباء واللغوين في إفريقية[3]، كما نقل إليها عدة كتب لغوية ودواوين لبعض مشاهير شعراء المشرق التي لم تكن قد وصلت إليها بعد، ونظراً لهذه المكانة العلمية التي تبوأها ولكفاءته الإدارية حظي بمكانة سامية لدى الأمير إبراهيم كما سبقت الإشارة إليه وكان من أكثر شخصيات البلاط

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٢٠ وما بعدها.
(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٤٥.
(٣) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٤٤.

قرباً منه.

ثم إسحق بن عمران الطبيب المشهور، البغدادي المولد والنشأة، والذي أخذ عن مشاهير أطباء العراق، ودرس العلوم الفلسفية وغيرها من العلوم العقلية، فبرع في الطب والصيدلة وعلوم الطبيعة فضلاً عن الفلسفة، وقد اشتهر بلقب (سم ساعة)، ربما لسرعة تأثير الأدوية التي كان يصفها للمرضى، أو لمهارته في تركيب السموم، أو لكلا الأمرين معاً، وكان من أوائل أطباء المسلمين الذين درسوا الطب النفسي أيضاً، ويعتبر كتابه في هذا العلم (المالنخوليا Melancolia) الذي وصف فيه أمراض الوسواس أوالمرض السوداوي وطرق معالجته من أول مصنفات المسلمين في هذا المرض وفي ذلك يقول ابن جلجل: (لم يسبق إلى مثله)[1]، والذي ترجمه قسطنطين الأفريقي إلى اللاتينية في القرن الحادي عشر للميلاد، فكان بذلك من بين أول كتب علوم العرب والمسلمين التي وصلت إلى أوروبا، وأول كتاب يصل إليها في هذا العلم، ويعتبر إسحق بن عمران بحق المؤسس الأول للمدرسة الطبية بإفريقية، وقد تخرج على يده أيضاً جيل من الأطباء فيها مثل محمد وإبراهيم ابنا الجزار، وإسحق الإسرائيلي وغيرهم، وإبراهيم هذا هو والد أحمد بن الجزار شيخ أطباء القيروان الذي اشتهر في أوائل عصر الدولة الفاطمية وطبقت شهرته الآفاق.

وهكذا كان اسحق بن عمران تبعاً لذلك من أقرب المقربين للأمير إبراهيم أيضاً.

ومنهم أيضاً زياد بن خلفون، الذي كان طبيب الأسرة الحاكمة والحاشية الأميرية، وكان يسكن القيروان في بداية أمره ويشرف على معالجة المرضى

---

(١) ابن جلجل: طبقات الأطباء والحكماء ص٨٥.

في الدمنة (مستشفى القيروان)[1]، ثم انتقل إلى رقادة بعد ذلك بناءً على رغبة الأمير إبراهيم ليكون قريباً منه، ومنذئذ قام ابن خلفون بالمهمة التي أوكلت إليه كعضو في هيئة التدريس ببيت الحكمة وطبيب للبلاط خير قيام، وبناءً على ذلك، فإن دوره في البلاط الأغلبي يذكرنا بالدور الذي قام به جبرائيل بن بختيشوع في بلاط الرشيد.

ثم أبو سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل الذي تقدم ذكره، والذي تلقى علومه في بغداد وأخذ عن مشاهير علماء العراق وقتئذ مثل ثعلب إمام اللغويين في عصره ونظرائه من المتقدمين في كل علم، كما تعلم العديد من الصناعات الدقيقة حتى أتقنها مثل صناعة الآلات العلمية، والتي كان منها الآلات الفلكية والرياضية وربما لقب بالصيقل لهذا السبب كما تقدم ذكره[2]، كما مهر أيضاً في صناعة الورق، وفي إفريقية أخذ عن عدد من العلماء الذين كان يزخر بهم بلاط الأمير نخص منهم بالذكر أبا اليسر الشيباني.

وهكذا برع الصيقل في العديد من العلوم والصناعات التي جعلته من ألمع رجالات البلاط ومدرسي (بيت الحكمة)، وقد خدم خليفتي الأمير إبراهيم من بعده، وعندما انقضى عهد الدولة الأغلبية خشي على نفسه من

---

(١) عرف المستشفى في إفريقية الأغلبية باسم (الدمنة)، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن أول مستشفى تم إنشاؤها فيها كان في موضع بالقيروان يسمى الدمنة بالقرب من مسجد السبت فأطلق عليه اسم ذلك الموضع فصار علماً له وأسقط اسم بيمارستان أو مستشفى، وحينما بنيت المستشفيات بعد ذلك في مدن إفريقية الأخرى مثل تونس، سوسة، صفاقس، وكانت على غرار مستشفى القيروان في نظامها وترتيبها حملت نفس الاسم، وهكذا شاع اسم الدمنة بدلاً من المستشفى.
انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٧٤.

(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٤٩ وما بعدها.

عبدالله المهدي خليفة الفاطميين الأول، فهرب إلى الأندلس والتحق بخدمة الحكم المستنصر الأموي وبقي في قرطبة حتى أدركته منيته[1].

ومن هؤلاء أيضاً عبدالله بن الصائغ الذي تبوأ مكانة علمية سامية بين أقرانه، اذ برع في العديد من فروع العلم والمعرفة، وقد شغل بعض المناصب بالإضافة إلى عمله كمدرس في (بيت الحكمة)، وظل يرتقي في هذه المناصب في عهد الأمير إبراهيم ثم في عهدي خليفتيه من بعده حتى اختاره زيادة الله الثالث وزيراً له بالإضافة إلى البريد، وبذلك يكون قد وصل إلى أعلى المناصب الحكومية[2].

ثم إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم الذي تقدم ذكره، والذي برع في علوم اللغة العربية حتى قال عنه الزبيدي أنه كان مقدماً فيها، ثم في باقي العلوم اللسانية بالإضافة إلى الكيمياء والفلك، وقد قربه الأمير إبراهيم منه وأسكنه في رقادة، وكان هو الآخر يتمتع بمكانة سامية في بلاط الأمير، ومن المرجح أنه كان يخصص قدراً من وقته للتدريس في (بيت الحكمة)، وكان لقربه من الأمير يرافقه في غدواته وروحاته، وقد رافقه إلى صقلية وجنوب إيطاليا حينما نذر نفسه للجهاد كما سيأتي ذكره، ثم عاد إلى القيروان بعد وفاته، وقد التجأ هو الآخر إلى الأندلس خشية من ملاحقة المهدي الفاطمي له عند قيام الدولة الفاطمية وبها كانت وفاته.

ثم أبو بكر بن القمودي المشهور بالفيلسوف الذي تخصص في الدراسات الفلسفية والجدل والمناظرة، والذي وصفه الخشني بقوله: (كان

---

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٣٠.

(٢) انظر الخشني: المصدر السابق ص٢١٤ وما بعدها، كذلك ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٥٩، حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٥١.

حاد القنا بصيراً بوجوه الكلام، عارفاً بأبواب المناقضة، متدرباً في صناعة المعارضة. . . وغلب عليه مذهب الاعتزال حتى لقب بالفيلسوف فصار نعتاً له)[١]، والذي كثيراً ما شارك في المناظرة العلمية والمذهبية التي كانت تدور في (بيت الحكمة) وقتئذ، وأظهر من سعة العلم والمقدرة في المناظرة والجدل ما ميزه عن أقرانه، وقد استمرت صلته الوثيقة بهذه الجامعة إلى ما بعد سقوط دولة الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية، حيث كان من أكبر مناوئي الدولة الجديدة، ويقول الخشني أنه ناظر أبابكر أبا العباس الشيعي برقادة (أي في بيت الحكمةعلى الأرجح) مناظرة أفحمه فيها مما أثار عليه أباعبدالله الشيعي داعية الفاطمين الأكبر الذي كان يحضر المناظرة،فوجه إليه من الكلام ما جعله يخشى منه على نفسه فاضطر للاعتذار إليه، بل كان ذلك هو السبب في انضمامه إلى دعوة الفاطمين منذئذ فولوه دار السكة[٢].

ومن هؤلاء أيضاً محمدبن أحمدبن الفرج البغدادي، وابن البريدي، وابن القيار، وابني الجزار الآنفي الذكر، وبكربن حماد، وسعيدبن الحداد الذي تقدم ذكره، وغيرهم ممن التحقوا ببلاط الأمير إبراهيم، وكانت لهم صلة ببيت الحكمة سواء بالتدريس أو المشاركة في المناظرات، مما يقدم لنا صورة واضحة عن مدى نشاط الحركة العلمية في تلك الجامعة.

ومن هذا العرض السريع لأقسام جامعة (بيت الحكمة) ونظمها وهيئة التدريس فيها، يتبين لنا أنها كانت جامعة علمية بالمعنى المفهوم لهذه

---

(١) الخشني: المصدر السابق ص٢١٤ وما بعدها، كذلك ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٥٩، حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٥١.

(٢) الخشني: المصدر السابق ص٢٢٢، كذلك ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٥٩.

العلمية دفعة قوية إلى الأمام إذ أصبح ينتج بكثرة ويباع بأسعار زهيدة وبالتالي أصبح في متناول الجميع، وفي خطوة تطويرية ثانية أخذ الصناع يصنعونه من مادة رخيصة أخرى هي القطن الذي كان يزرع أيضاً في نواحي عديدة من إفريقية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل خطت هذه الصناعة خطوة هامة أخرى في هذا العهد هي التوصل إلى صناعته من خرق الكتان البالية مما زاد في تدني أسعاره أيضاً، وقد وصل إلينا نموذج من الورق المصنوع في إفريقية من هذه المواد الأولية الرخيصة، هو عبارة عن كرّاس صنع ونسخ كذلك في القيروان في هذا العهد، وفي سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م على وجه التحديد[١]، فضلاً عن نماذج أخرى تعود صناعتها إلى هذه الفترة تحتفظ بها المكتبة العتيقة بجامع عقبه بن نافع بالقيروان[٢].

كما حفظ لنا التاريخ أسماء العديد من صناع الورق الأفارقة في هذا العهد، نذكر منهم عثمان بن سعيد الصيقل الذي تقدم ذكره، وإبراهيم بن سالم المعروف بالوراق الإفريقي، والذي لا زال جامع القرويين بفاس يحتفظ بقطعة من الورق مما صنعه للحكم المستنصر الأموي بالأندلس[٣]، ثم محمد بن يوسف التاريخي المشهور بالوراق أيضاً، ومحمد بن الحارث الخشني، وجميع هؤلاء ارتحلوا إلى الأندلس عقب سقوط دولة الأغالبة والتحقوا بخدمة الحكم المستنصر، وأخذوا يصنعون له الورق لسد حاجة دواوينه ومكتبته الضخمة المشهورة منه[٤]، فكان لهؤلاء ولغيرهم من صناع

---

(١) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٦٤.
(٢) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق١ ص٢٠٨.
(٣) انظر حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٦٢.
(٤) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٧٨.

الورق الأفارقة الذين ارتحلوا إلى الأندلس آنذاك والتي تزامنت مع بداية ازدهار الحركة العلمية هناك، الفضل الأكبر في نقل هذه الصناعة الهامة إلى تلك البلاد.

الحركة الفنية:

واستكمالاً لهذا الموضوع، يجدر بنا أن نشير ولو إشارة عابرة إلى جهود الأمير إبراهيم في تنشيط الحركة الفنية في إفريقية، فقد كانت على قدر من الأهمية بحيث يصعب علينا إغفالها، كانت بوادر هذه الحركة قد ظهرت في عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية، بخاصة منذ أن أنشأ مدينة العباسية واتخذها مقراً لسكناه، حيث بدأ بعض الفنانين يفدون إليها من المشرق ويقيمون في بلاطه، فيشربون الأمراء الصغار روح الفن بعيداً عن القيروان ذات الطابع الديني المحافظ مع ما كانوا يتلقونه من علوم على أيدي المؤدبين، كما أن بعض الجواري كن يأخذن عنهم أصول الموسيقى والغناء، وبذلك بذر هؤلاء البذرة الأولى للحركة الفنية في إفريقية[1].

وأتت الدفعة القوية الثانية لهذه الحركة من زرياب الذي مر بإفريقية بعد ذلك بقليل أي في أواخر سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٢م في طريقه إلى الأندلس، إذ اتصل بالأمير زيادة الله الأول الذي أكرمه وأسكنه في أحد قصور العباسية[2] وألحقه بحاشيته، ولولا انشغال الأمير بالقضاء على المشاكل التي واجهته وقتئذ لربما استبقاه وصرفه عن الرحيل إلى الأندلس، وعلى أية حال، أقام زرياب في العباسية بضعة أشهر تعهد فيها تلك الحركة الفنية

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٧٨.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٨٣.

الناشئة بقدر ما وسعه الوقت، وترك بصماته واضحة عليها.

ثم واصلت هذه الحركة مسيرتها بعد ذلك نتيجة للاتصالات المستمرة بين إفريقية والمشرق بعامة والعراق بخاصة، التي كانت تحقنها دوماً بدماء جديدة، فلم تلبث تبعاً لذلك أن جاوزت العباسية إلى القيروان نفسها بالرغم من المعارضة القوية التي واجهتها فيها، إذ تشير المصادر التاريخية إلى وجود حي فيها منذ أوائل الربع الثاني من القرن الثالث الهجري خاص للهو والطرب هو الحي المعروف بربض (البقرية) كان يجتمع فيه المغنون ويقصده محبو اللهو والسماع من الشباب وأهل المجون طلباً للمتعة، وقد ذكر الإخباريون بعض مشاهير أولئك الفنانين مثل (قاسم الجوعي)، و(أبو شرف[1]).

وازداد نشاط هذه الحركة في عهد الأمير أحمدبن محمد والد الأمير إبراهيم بما كان يحضره من جوار مغنيات من المشرق، وتقول المصادر أنه كان له مجالس للسماع يحضرها ندماؤه، وأخرى خاصة كان ينفرد فيها مع جواريه، وبلغ من حبه للغناء والموسيقى أن جلب من بغداد كمية من خشب الساج لصنع العيدان.

ومع أنه أعلن توبته بعد ذلك بقليل، وأمر أن يصنع من ذلك الخشب المنبر البديع الذي يرى الآن في جامع القيروان[2]، إلاّ أن تأثير هذه التوبة لم يكن كبيراً على الحركة الفنية، إذ بقيت في تقدم مُطّرد في زمن خليفته زيادة الله الثاني ومحمد الثاني (أبو الغرانيق).

إلاّ أنها دون شك بلغت أوج نشاطها في عهد الأمير إبراهيم الذي

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات ق٢ ص١٧٨.

(٢) حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق٢ ص١٨٢.

أولاها عنايته لرغبته الصادقة في رعاية كافة جوانب الحركة الحضارية في دولته وترسيخها دون استثناء. فمنذ إنشاء رقادة، بما حباها الله سبحانه وتعالى من جمال الموقع وطيب الهواء وكثرة البساتين والحدائق، وجو الحرية الذي وفره لها الأمير أخذت تجتذب الفنانين على اختلاف ميولهم للإقامة فيها، ومع المشارقة الوافدين إلى البلاط الأميري تسربت إليها المؤثرات الفنية الجديدة التي كانت نتاج أحدث ما طرأ على الفنون في المشرق من مستجدات، ونتيجة لذلك كله انتشرت فيها محلات اللهو ومجالس الطرب ومحلات بيع النبيذ الذي كان يباع فيها علانية ويمنع ذلك في القيروان حتى لا تثور ثائرة الفقهاء على الحكومة مما جعل بعض الظرفاء من أدباء القيروان يخاطب الأمير إبراهيم بقوله:

يا سيد الناس وابن سيدهم ... ومن إليه رقاب الناس منقاده
ما حرّم الشرب في مدينتنا ... وهو حلال بأرض رقادة[1]

وبناء عليه أخذت رقادة تشهد نهضة فنية واسعة مما جعلها تصبح محور الحركة الفنية في إفريقية بأسرها.

ودعم الأمير إبراهيم هذه الحركة باستقدام مجموعة من الفنانين المشارقة كان من ضمنهم مؤنس المغني مع سفيره (أبي بحر بن أدهم) الذي أرسله إلى بغداد سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م[2]. كان مؤنس قبل قدومه إلى إفريقية في خدمة موسى بن بغا القائد العباسي المشهور، وكان قد تتلمذ على مجموعة من مشاهير فناني العراق وحفظ ألحانهم فضلاً عن الكثير من ألحان غيرهم من القدامى والمعاصرين، وأتقن العزف على عدد من الآلات الموسيقية

---

(١) البكري: المصدر السابق ص٢٨.
(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٢٩.

المعروفة وقتئذ بخاصة العود والطنبور، وتبعاً لذلك، لم يلبث أن حظي بمواهبه المتعددة لدى الأمير إبراهيم، فأصبح أحد ندمائه المقربين وأنيسه الذي يسرّي عنه بغنائه كلما تاقت نفسه للراحة سواء في مجالسه الخاصة أو التي كان يحضرها جواريه.

ولكن دور مؤنس الأهم في نشاط الحركة الفنية هو انتشار الغناء والموسيقى الشرقية في إفريقية عن طريقه بقوة أكبر عن ذي قبل، ذلك أنه أخذ يلقن المغنيات من جواري الأمير ما يتقنه من ألحان[1]، فضلاً عن جواري بعض الأمراء وكبار رجالات الدولة، وعن طريقهن شاعت في رقادة ومنها انتقلت إلى القيروان ثم إلى باقي أنحاء إفريقية، خاصة وأنه أقام في البلاط الأميري مدة طويلة، إذ بعد وفاة الأمير إبراهيم خدم خليفتيه عبدالله الثاني وزيادة الله الثالث، كما خدم المهدي الفاطمي بعد سقوط دولة الأغالبة وانتقل معه إلى المهدية، وبقي في خدمته إلى أن وافاه الأجل فجأة في سنة ٣١٤هـ / ٩٢٦م[2]. وعلى ذلك، ونظراً لإقامته الطويلة في إفريقية التي زادت عن الثلاثين عاماً وجهوده المتواصلة في تطوير الحركة الفنية فيها، فقد قام فيها بنفس الدور الذي قام به زرياب في الأندلس.

استئناف حركة الفتوحات:

قلنا أن الأمير إبراهيم تولى الحكم في وقت كانت قد فترت فيه حركة الجهاد والفتوحات الإسلامية في جنوب غرب أوروبا، وليس ذلك فحسب، بل إن صحوة الدولة البيزنطية في ظل الأسرة المقدونية باتت تشكل خطراً

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق٢ ص١٨٢.
(٢) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٩١.

كبيراً على المسلمين في الولايات الأوروبية، خاصة أنه قام في تلك الآونة تعاون بين عاهلها الإمبراطور بسيل الأول والإمبراطور لويس الثاني الكارولنجي، ومما زاد الوضع سوءً نجاح إمارة نابولي آنذاك وبمساعدة من أمالفي وجايتا وسورينتو في طرد المسلمين من بعض مواقعهم في جنوب ساليرنو، وتوقف المد الإسلامي في منطقة الأدرياتيكي.

لذلك، فقد فرض عليه هذا الوضع أن يبذل قصارى جهده لمواجهة الخطر البيزنطي ودعم المسلمين في تلك النواحي بما يتاح له من إمكانيات تمهيداً لاستئناف حركة الفتوحات من جديد، وكان لنجاح الأسطول الأغلبي في فتح مالطة قبل وفاة أبي الغرانيق بأيام أو في مطلع عهده هو - على خلاف بين المؤرخين في ذلك[1] - أثره القوي في رفع الروح المعنوية لدى المسلمين، إذ أن ذلك حرم الأسطول البيزنطي من قاعدة هامة في وسط البحر الأبيض المتوسط طالما أزعجتهم وهددت طرق المواصلات بين إفريقية وصقلية من جهة، وبينها وبين المشرق من جهة ثانية، فضلاً عن تهديد أرضها ذاتها.

أخذ الأمير إبراهيم في أعقاب فتح مالطة يستعد لنقل الصراع بينه وبين البيزنطيين إلى الساحة الصقلية، وما كادت تمضي فترة وجيزة حتى اشتبك معهم في حرب ضروس كان ينتزع من أيديهم خلالها المعقل تلو الآخر. ففي سنة ٢٦٤هـ / ٧٧-٨٧٨م هاجم جعفر بن محمد واليه على تلك الجزيرة نواحي مدينة سرقوسه إحدى كبريات مدنها وقاعدة البيزنطيين الرئيسية فيها، ثم اتسع نطاق عملياته العسكرية فشمل أراضي قطانية وطبرمين ورمطه وقد شجعته الانتصارات التي أحرزها في تلك العمليات على الزحف بقواته على سرقوسه ذاتها ومحاصرتها براً وبحراً حتى تمكن

---

(١) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٠٦ وما بعدها.

من فتحها بعد دفاع دام تسعة أشهر ألحق خلالها هزيمة منكرة بالأسطول البيزنطي الذي قدم لنجدتها، كما أنه هزم أسطولاً بيزنطياً آخر قدم لنجدتها، كما أنه هزم أسطولاً بيزنطياً آخر قدم لاستعادتها من المسلمين بعد فتحها بشهرين[1].

وفي السنة التالية ٢٦٥هـ / ٧٨- ٨٧٩م غزا الحسن بن رباح - الذي خلف جعفر بن محمد بعد أن اغتاله غلمانه الصقالبة- نواحي طبرمين التي لم يبق بأيدي البيزنطيين في صقلية من المدن سواها، وألحق بالعدو هزيمة منكرة[2]، وفي صيف العام التالي ٢٦٦هـ / ٧٩- ٨٨٠م، وبناءً على تعليمات من الأمير إبراهيم هاجم الحسن بن رباح إقليم بروفانس، ولم يكتف المسلمون بالغارة، بل شرعوا في الزحف باتجاه مرسيليا مما جعل الإمبراطور الكارولنجي يستنجد بحليفه البيزنطي الذي أرسل أسطولاً من (١٤٠) قطعة إلى المنطقة فصادف بعض قطع الأسطول الأغلبي فاشتبك معها في معركة غير متكافئة لم يجد فيها استبسال المسلمين فمنوا بالهزيمة[3]، ولكن بالرغم من هذه الهزيمة، فإن قواتهم استمرت في التوغل في جنوب فرنسا حتى سنة ٢٧٢هـ / ٨٨٥م ففتحت كولونا وبعض شواطىء الرون[4]، وفي الوقت نفسه كانت سراياهم توالي شن غاراتها على

---

(١) انظر ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص١٩، ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٧، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٦٦ وما بعدها.

(٢) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٧، كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٦٨.

(٣) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١١٧.

(٤) شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر الأبيض المتوسط ص٣٦٩.

البيزنطيين في صقلية تدمر أرضهم وتنسف زروعهم وتعود محملة بالغنائم[١].

ولم يكن الحسين بن العباس والي صقلية الجديد أقل حماساً من سلفه الحسن بن رباح في مواصلة الحرب ضد البيزنطيين، إذ لم يلبث أن خرج بجيش كبير فهاجم نواحي قطانية ثم طبرمين وبقاره، واشتبك مع العدو في عدة معارك كان النصر فيها له، ثم عاد إلى بلرم بغنائم كثيرة[٢]، الأمر الذي أثار البيزنطيين فأخذوا يشنون على المسلمين غارات مماثلة، منها تلك الغارة التي اصطدمت بسرية إسلامية يقودها رجل يعرف بأبي ثور هزم فيها المسلمون ولم ينج منهم سوى سبعة نفر فقط[٣]. وفي سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م زحف محمد بن الفضل والي صقلية الجديد على قطانية فخرب نواحيها، كما شن أسطوله غارة مفاجئة على ميناثها فدمر ما فيه من قطع بحرية، ثم اتجه إلى طبرمين حيث أصاب نواحيها من التخريب مثلما أصاب قطانية، وحينما خرجت القوات البيزنطية لقتاله ألحق بها هزيمة منكرة، وبلغ عدد قتلى الروم في تلك المعركة ثلاثة آلاف قتيل، وسارع للاستفادة من هذا النصر فهاجم قلعة الملك في تلك النواحي وفتحها عنوة فقتل مقاتلتها وسبى الباقي وعاد إلى بلرم وقد ملأ جنده أيديهم من الغنائم، وفي السنة التالية هاجم رمطه وحينما استعصت عليه تركها إلى قطانية حيث شنت سراياه غارات تخريبية في نواحيها عاد بعد ذلك إلى بلرم

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٢٥، ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١١٧.

(٢) د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٦٩.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٣٩.

غانماً[1].

وهكذا توالت هذه الغارات التخريبية على مدن الروم في الجزيرة في عهد محمد بن الفضل، وفي عهد سوادة بن محمد بن خفاجة التميمي الذي خلفه في ولايتها سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م، والجدير بالذكر هو أن هذا النوع من الغارات لم يكن يقصد بها التخريب والدمار لذاته حباً فيه، أو لمجرد الحصول على الغنائم، وإنما كان أحد أساليب الحرب التي شاعت في الصراع الإسلامي المسيحي في مختلف جبهات هذا الصراع، وقد اتبعه المسلمون والنصارى على حد سواء ولا زال يُتبع حتى في عصرنا الحاضر، والهدف الأهم له هو اختبار قوة العدو، وحرمانه من أقواته، وتهجير أكبر عدد من السكان، كل ذلك لإضعافه في المنطقة التي تشهد تلك الغارات تمهيداً لاحتلالها.

ونتيجة لهذا الضغط المتزايد من المسلمين، بادرت القسطنطينية بإرسال أسطول ضخم في سنة ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م إلى صقلية يقوده أحد القواد العظام هو نيقفور فوكاس، الذي ما أن وصل إلى المياه الإيطالية حتى ضرب الحصار على مدينة سيبرينه (Santa Severina) في جنوب ايطاليا، وضيق عليها الخناق حتى اضطر مسلموها للاستسلام له على الأمان، فدخلها وسمح لهم بالرحيل إلى صقلية، ثم اتجه بعد ذلك إلى مدينة منتينه (Amentea) حيث انتزعها هي الأخرى من المسلمين، وبذلك أخذ يهدد الوجود الإسلامي ليس في جنوب إيطاليا فحسب، وإنما في صقلية ذاتها أيضاً.

وتنبه الأمير إبراهيم لهذا الوضع الذي نجم عن الحضور البيزنطي القوي

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٣٩.

في تلك المنطقة، فرأى إسناد ولاية صقلية إلى رجل قوي من ثقاته يستطيع مواجهة هذا الموقف فضلاً عن ضبط أمور الجزيرة وما يتبعها من أراض أوروبية والتي بدأت تشهد انتفاضات متعددة من أهالي البلاد حينما أحسوا باشتداد وطأة البيزنطيين على المسلمين، فوقع اختياره على قريبه أبي مالك أحمد بن عمر الأغلبي المعروف بحبشي الذي كان قائداً شجاعاً ومحنكاً عركته التجارب، والذي شرع منذ وصوله الجزيرة في سنة ٢٧٣هـ / ٨٨٦م في إعداد أسطول ضخم فضلاً عن القوات البرية، وفي الوقت نفسه بذل جهوداً كبيرة في تهدئة الوضع في البلاد بإخماده لما نشب فيها من اضطرابات وفتن، دون أن يغفل عن مراقبة تحركات البيزنطيين.

وقد استغرقت منه هذه الاستعدادات حوالي العامين، وما أن استكملها حتى شن هجوماً برياً وبحرياً على البيزنطيين، إذ اشتبك الأسطولان الإسلامي والبيزنطي في معركة مروعة، وفي نفس الوقت كانت المعارك البرية تدور في منطقة (ريو)، وكانت النتيجة أن انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً في البر والبحر وقتل من الروم في تلك المعارك سبعة آلاف وغرق منهم خمسة آلاف آخرين كما يقول ابن عذاري، وأخذت مراكب البيزنطيين في (ميلاص)، وهرب أهل (ريو)[1]. وكان من نتيجة هذا الانتصار العظيم أن أخلى البيزنطيون الكثير من المدن والحصون التي تجاور المسلمين، وبالتالي رجحت كفة المسلمين وظهرت سطوتهم على عدوهم في إيطاليا حتى تتابعت سراياهم تشن الغارات المتلاحقة وتعود مظفرة إلى بلرم[2]،

---

(١) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٠، كذلك د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٧٣.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٠، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٧٣. وما بعدها.

وفي أعقاب ذلك رأى الأمير إبراهيم إعادة أبي مالك إلى إفريقية لحاجته إليه فاستدعاه، فأناب هذا عنه في الجزيرة سوادة بن محمد واليها السابق الذي عاد لسياسته السابقة في شن الغارات على البيزنطيين والتي كان أهمها هجومه بالصائفة على (طبرمين) ومحاصرتها في سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م إلاّ أنه فشل في فتحها.

ومع أنه كان من الممكن أن يستفيد المسلمون كثيراً من النصر الذي حققوه في معركة (ميلاص)، إلاّ أن المتاعب التي واجهها الأمير إبراهيم في إفريقية والتي اضطرته لاستدعاء أبي مالك، وشغلته عن صقلية، جعلته لا يستفيد كثيراً من ذلك النصر كما ينبغي، وخفت وطأة المسلمين على البيزنطيين، وليس ذلك فحسب، وإنما اضطرته هذه الظروف للموافقة على أن يعقد والي صقلية في سنة ٢٨٢ / ٨٩٥ صلحاً مع البيزنطيين مدته (٤٠) شهراً لم تكن شروطه في صالح المسلمين كما عهدناه من قبل، فمع أن الروم أطلقوا بموجب هذا الصلح ألف أسير من المسلمين، إلاّ أن المسلمين وافقوا على أن يقدموا لهم بالمقابل ثلاثة من العرب وثلاثة من البربر في كل ثلاثة أشهر كرهائن ضماناً للوفاء[1]. وزاد الوضع سوء نشوب فتنة بين العرب والبربر في الجزيرة في سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م استنفدت من الأمير جهداً كبيراً حتى تمكن من إخمادها، وتم القبض على عدد من زعمائها من بينهم: أبو الحسن يزيد وولداه، والحضرمي، وأرسلوا إلى إفريقية حيث لاقوا حتفهم[2].

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢٩.

(٢) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣١، ويقول أن أبا الحسن تناول سماً في حضرة الأمير إبراهيم فمات لساعته، وأما ولداه فقتلا صبرا، وضرب الحضرمي بالمقارع حتى مات.

ومع أنه تم القضاء على هذه الفتنة، إلاّ أن الأمير إبراهيم رأى أن يسند ولاية صقلية لابنه وولي عهده أبي العباس الذي كان يماثل أبا مالك في الكفاءة إن لم يفقه، ليعيد الاستقرار إليها ويستأنف حركة الجهاد التي بدأت تفتر من جديد[1]، ووصل أبو العباس إلى المياه الصقلية في أسطول من (١٦٠) قطعة في غرة شعبان سنة ١٨٧هـ/ ١ أغسطس ٩٠٠م في وقت كانت فيه الفتنة بين العرب والبربر قد اشتعلت تارة أخرى، وكان جيش العاصمة بلرم حيث العرب يحاصر وقتئذ مدينة جرجنت حيث البربر، لذلك اتجه بأسطوله إلى مدينة طرابنش البيزنطية وحاصرها، وكان بذلك يوجه أنظار كلا الطرفين إلى الوجهة الصحيحة التي من المفروض أن يوجهوا قواهم إليها بدلاً من انشغالهم بعضهم ببعض، ولم تلبث كلتا المدينتين أن أرسلتا إليه وفديهما لإعلان ولائهما للدولة، ثم توالت الحوادث بعد ذلك بينه وبين كلا الطرفين بما لا يتسع المجال لذكره عبر ابن خلدون عنها بقوله: (فأغراه كل واحد منهم بالآخر ثم اجتمعوا لحربه)[2]، وبذل أبو العباس جهوداً كبيرة حتى تمكن من إطفاء نار الفتنة ثانية وبسط سيطرته على البلاد، ومن ثم أخذ يستعد لمقارعة البيزنطيين.

وقد استهل جهوده في هذا المجال بمهاجمة طبرمين، وحينما استعصت عليها تركها وزحف إلى قطانية إلاّ أنها استعصت عليه هي الأخرى، فعاد إلى بلرم لقضاء فصل الشتاء[3]، وفي مطلع صيف سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م زحف إلى مدينة دمنش وحاصرها، ولكنه تركها وعبر مضيق مسيني إلى

(١) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٧٦.
(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤، كذلك ابن الأثير: ج٦ ص١٠٣.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص١٠٣، ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣١.

مدينة (ريو) المقابلة في البر الإيطالي لضرب تجمعات للبيزنطيين كانت قد بدأت تحتشد فيها، فاشتبك معها وألحق بها هزيمة منكرة، تقدم بعدها وفتح المدينة التي لم يعد فيها ما يمنعه منها وأصاب فيها غنائم عظيمة، ورجع إلى مسيني حيث التقى بأسطول بيزنطي كان قد وصل لتوه من القسطنطينية فهاجمه وانتصر عليه وأسر ثلاثين قطعة منه، ثم هدم سور مسيني حتى لا يباغتها البيزنطيون فتقع في أيديهم وبالتالي يسيطرون على مضيقها الهام[1]، الأمر الذي سيكون له بلا شك أثره الخطير على المسلمين في العدوة الإيطالية.

وفي تلك الآونة، حدث تحول هام في حياة الأمير إبراهيم، إذ زهد في الحكم، ورأى أن يتجه إلى الله سبحانه وتعالى بكليته وأن يهب إليه ما تبقى من عمره، بأن يتنسك ويذهب لأداء فريضة الحج، ثم لم تلبث أن خطرت له فكرة مباشرة الجهاد بنفسه ليقرن الجهاد بالحج، لذلك أمر ابنه أبا العباس بالعودة إلى إفريقية، الذي قدم إليها جريدة في خمس شواني تاركاً الجيش في عهدة ولديه أبي مضر زيادة الله وأبي معد، حيث تنازل له أبوه عن الحكم، في حين باشر هو في الاستعداد للرحيل إلى صقلية للجهاد، فأخرج ما كان قد ادخره من السلاح والأموال، وحشد ما استطاع من الجند، وعمر أسطولاً ضخماً شحنه بأنجاد البحارة والعدد والأقوات، ولم يكتف بذلك بل استكثر من فعل الخير، وفي ذلك قال ابن عذاري: (فرد المظالم، وأسقط القبالات، وأخذ العشر طعاماً، وترك لأهل الضياع خراج سنة، وسماها سنة العدل، وأعتق مماليكه، وأعطى فقهاء القيروان

---

(١) انظر ابن عذارى: المصدر السابق ج٦ ص١٠٣، كذلك ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣١، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٧٩ وما بعدها.

ووجوه أهلها أموالاً عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين[1]، وأما ابن الأثير فيقول: (تصدق بجميع ما يملك ووقف أملاكه جميعها)[2]، وحينما فرغ من ذلك، واطمأن على حسن إعداد أسطوله وقواته، زود ابنه أبا العباس بآخر نصائحه وتوجيهاته، ثم غادر رقادة إلى سوسه، فدخلها في أول سنة ٢٨٩هـ (وعليه فرو مرقع في زي الزهاد)[3]، حيث أبحر بقواته إلى صقلية.

وتتضارب روايات المؤرخين في تعليل سبب هذا التحول في حياة الأمير إبراهيم، فما يفهم من رواية ابن الأثير أنه كان بوازع ديني وأنه قصد به التقرب إلى الله سبحانه وتعالى[4]، وأما ابن عذاري فيقول: (وفي سنة ٢٨٩ أظهر صاحب إفريقية إبراهيم بن أحمد التوبة لما استقام أمر أبي عبد الله الداعي بكتامة، فأراد إبراهيم بن أحمد أن يرضي العامة، ويستميل قلوب الخاصة بفعله[5]، أي أن الدافع لذلك كان سياسياً الهدف منه استمالة قلوب الرعية حينما شعر بخطر الدعوة الفاطمية الذي بدأ يهدد دولته وقتئذ بعد نجاحها في قبيلة كتامة، في حين يقول ابن خلدون نقلاً عن الرقيق القيرواني أنه في سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م قدم (رسول المعتضد بعزل الأمير إبراهيم لشكوى أهل تونس به فاستقدم ابنه أبا العباس من صقلية وارتحل إليها مظهراً الغربة والانتجاع)[6]، أي أن هذه التوبة كانت

---

(١) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٢١ وما بعدها، انظر كذلك ابن الخطيب: المصدر السابق ق٣ ص٣٤ وما بعدها.
(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦.
(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.
(٤) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.
(٥) ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣١.
(٦) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.

بسبب عزل الخليفة العباسي له من الحكم وتوليته ابنه أبي العباس بدلاً منه نظراً لبطشه بأهل مدينة تونس إبان إخماد ثورتهم الثانية في سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م كما سبقت الإشارة إليه، ويقول في موضع آخر أن نجاح الدعوة الفاطمية كان سبباً (من الأسباب التي دعته للتوبة والإقلاع والخروج إلى صقلية)[1].

ويمضي ابن خلدون في هذا التعليل قائلاً: (وبعث إبراهيم رسوله إلى الشيعي بانكجان يهدده ويحذره فلم يقبل وأجابه بما يكره فلما قربت أمور أبي عبدالله وجاء كتاب المعتضد لإبراهيم كما قدمناه أظهر التوبة ومضى إلى صقلية... وكان إبراهيم قد أسر لابنه أبي العباس في شأن الشيعي ونهاه عن محاربته وأن يلحق به إلى صقلية إن ظهر عليه)[2]، أي أن الأمير إبراهيم خرج إلى صقلية شبه هارب من أبي عبد الله الشيعي نظراً لأن اليأس قد تطرق إلى نفسه من جدوى مقاومته حتى أنه نهى ابنه وخليفته عن حربه وأسّر إليه يدعوه لللحاق به إن ظهر عليه حسب هذه الرواية.

وينفرد ابن الخطيب في روايته بأن جعل هذه التوبة في سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م أي قبل الوقت الذي اتفقت عليه المصادر التي اطلعت عليها بما يزيد عن الأربع سنوات إذ يقول: (وفي سنة أربع وثمانين أظهر إبراهيم بن أحمد التوبة، وأزمع الخروج إلى الجهاد بصقلية ورفض الملك)[3] ثم يؤيد ابن خلدون في أن يأسه من جدوى مقاومة الدعوة الفاطمية كان هو الدافع لمغادرته إلى صقلية حيث يقول بعد أن بسط محاورة رسول الأمير إبراهيم

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٥.

(٣) ابن الخطيب: المصدر السابق ق٣ ص٣٤.

لأبي عبدالله الشيعي: (فلما بلغ إبراهيم قوله [أي قول أبي عبد الله]، ووصفت له صفته، عرف أنه صاحب قطع دعوته، وكان له علم من الحدثان)[1]، وبصرف النظر عما يمكن أن يوجه لهذا القول من نقد، فإنه من الواضح أن ذلك وهم من ابن الخطيب في سنة التوبة، فإن لم يكن ذلك تصحيفاً من النساخ، فإنه يكون قد خلط بين وقت قدوم رسول الخليفة إليه في المرة الأولى في أعقاب ثورة مدينة تونس كما سبق ذكره، وقدوم الرسول الآخر في سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠١م.

وما يبدو لنا من المقابلة بين روايات هؤلاء المؤرخين أن هنالك تحاملاً واضحاً من فريق منهم على الأمير إبراهيم لاستنادهم إلى رواية الرقيق القيرواني التي سأتعرض لها فيما بعد، فخرجوا بهذه التعليلات التي تتفق مع هذا التحامل، في حين أن الفريق الآخر الذي جعل عزمه على الخروج إلى صقلية والتفرغ للجهاد هو تقرب إلى الله سبحانه وتعالى صدر عن نية صادقة في العمل على مرضاته كان ينظر إلى هذا الموضوع من زاوية تحرر فيها من رواية الرقيق، وفي اعتقادي أن وجهة نظرهم هي الأصح، إذ أن كلاً من روايات الفريق الأول تحمل في طياتها أسس نقضها الأمر الذي لا يتسع المجال لبسطه هنا بطبيعة الحال.

وأيا كان الأمر، فإن الأمير إبراهيم اتجه عندما وصل إلى صقلية إلى مدينة نرطنوا (Neritimum) وحاصرها حتى فتحها، ثم سار إلى مدينة طرابنش وأقام فيها سبعة عشر يوماً، ومنها سار إلى بلرم وأقام فيها أربعة عشر يوماً، وفي كلتا المدينتين كان يتألف القلوب بما أظهره من رفق وتدين وعدل ورد للمظالم، ويجمع الرجال ويستنهض الهمم ويهيىء النفوس للجهاد، ويوزع الأرزاق والخيل والسلاح على المجاهدين فأعطى

(١) ابن الخطيب: المصدر السابق ق٣ ص٣٩.

الفارس عشرين ديناراً والراجل عشرة دنانير، وعجّل الأرزاق لغزاة البحر[1]، ولم تكد تمضي بضعة أيام حتى دب الحماس في نفوس المسلمين، والتفوا من حوله، وحينذاك، بدأ في تنفيذ مشاريعه الجهادية، والتي استهلها بالزحف على مدينة طبرمين تلك المدينة الحصينة التي طالما استعصت على ولاة صقلية وقوادها، وكان فتحها أمنية عزيزة على المسلمين.

وتسربت أنباء هذا الزحف إلى أهل تلك المدينة، فسارعوا إلى الاستعداد للدفاع عن بلدهم، وأحدقت الجيوش الإسلامية بالمدينة، وفي صباح اليوم الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من شعبان سنة ٢٨٩هـ شنت عليها هجوماً شاملاً، إلاّ أن مناعة أسوارها واستماتة أهلها في الدفاع اضطرتها للتراجع عنها في منتصف النهار[2]، ولنستمع إلى الزبيدي وهو يروي حوادث هذا الهجوم في معرض ترجمته للطلاء المنجم الذي شهد هذه الحرب مع الأمير: (...وشهد حرب طبرمين، وأقام الطالع يوم فتحها، وقد انصرف إبراهيم عن حربها منتصف النهار، فأعلمه أنه يفتحها للوقت، ونظر إبراهيم أيضاً في ذلك فوافقه، وكان إبراهيم ينتحل علم النجامة، فعاود الحرب، ففتحها للوقت)[3]، وأما ابن الأثير فيقول في روايته أنه حينما أعد الأمير قواته للهجوم، أخذ القراء المرافقون له في قراءة الآيات القرآنية التي تحض على الجهاد لحث المسلمين على بذل أرواحهم - في سبيل الله - (فقرأ القارئ: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»،

---

(١) انظر ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥، كذلك النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة١٢١ د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٨١.
(٢) انظر ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥.
(٣) الزبيدى: المصدر السابق ص٢٤٢.

فقال الأمير: اقرأ: «هذان خصمان اختصموا في ربهم» فقرأ فقال: اللهم إني أختصم أنا والكفار إليك في هذا اليوم وحمل ومعه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا ودخلوا معهم المدينة عنوة فركب بعض من بها من الروم مراكب فهربوا فيها والتجأ بعضهم إلى الحصن وأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم فاستنزلوهم قهراً وغنموا أموالهم وسبوا ذراريهم لسبع بقين من شعبان وأمر بقتل المقاتلة وبيع السبي والغنيمة)[١].

وكان لفتح الأمير إبراهيم لطبرمين صدى عظيم في الدولة البيزنطية، ذلك أن هذه المدينة كانت آخر معقل هام لهم في صقلية وقاعدتهم الكبرى في حروبهم مع المسلمين، ويتضح ذلك مما يقوله ابن الأثير عن مدى حزن الإمبراطور البيزنطي وتأثره العميق حينما علم بنبأ سقوطها في يد المسلمين حيث يقول: (ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقي سبعة أيام لا يلبس التاج وقال: لا يلبس التاج محزون)[٢] فيكون بذلك قد أعلن حداداً رسمياً في أنحاء إمبراطوريته وبدأ في ذلك بنفسه.

وكان وقع ذلك الحادث على روم صقلية أشد، إذ شعروا بأنهم أصيبوا بضربة قاصمة، وأن إقامتهم فيها أصبحت مسألة وقت ليس إلاّ، فأخذت معاقلهم التي لم تكن قد فتحت بعد تتهاوى في أيدي سرايا الأمير إبراهيم التي بثها في المنطقة دون مقاومة تذكر، ومنها ما وجد خالياً بعد أن جلى

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٥ وما بعدها، كذلك النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة ١٢١، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٨١ وبعدها.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦، انظر أيضاً النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة ١٢٢، دكتور سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٨٣.

أهله عنه، فسقطت ميقش في يد حفيده أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس، كما سقطت دمنش في يد ابنه أبي الأغلب، ورمطه في يد أبي مضر أيضاً، وألياج في يد قائده سعدون الحلوي، وكانتا قد عرضتا الصلح على دفع الجزية للمسلمين، إلاّ أن الأمير إبراهيم رفض إلاّ أن يتسلم حصونها، فلم يجد أهلها بداً من الإذغان لهذا الشرط، فأخذهما المسلمون وهدموهما[1]، وهكذا يكون الأمير إبراهيم هو الذي استكمل فتح صقلية واستبرأها من البيزنطيين، وهي مأثرة سجلها له التاريخ.

وبعد هذا الإنجاز الضخم، أخذ يتأهب لعبور مضيق مسيني إلى جنوب إيطاليا، ويبرز هنا سؤال يطرح نفسه هو ما الذي كان يهدف إليه الأمير بنقل عملياته العسكرية إلى البر الإيطالي؟ هل كان لتثبيت الفتح الإسلامي في تلك المناطق وتمهيد الأمور ونشر الاستقرار فيها كما فعل في صقلية ليقطع على البيزنطيين أي أمل في العودة إليها من جهة ويحمي جناح المسلمين في إقليم بروفانس ويشد أزرهم لاستئناف فتوحاتهم فيه من جهة ثانية، أم أن طموحاته ذهبت إلى أبعد من ذلك؟ وللإجابة على هذا التساؤل نرى ضرورة العودة إلى رواية ابن الأثير التي نعتقد أنها تسلط قدراً من الضوء على هذا الموضوع والتي جاء فيها: (...وتحركت الروم وعزموا على المسير إلى صقلية لمنعها من المسلمين، فبلغهم أنه سائر إلى القسطنطينية فترك الملك بها عسكراً عظيماً وسير جيشاً كبيراً إلى صقلية)[2].

وبدراسة هذا النص يتبين لنا - إن صحت الرواية - أن أنباء وصلت

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦، انظر أيضاً النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١٢٢، د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٢٨٣.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦.

الإمبراطور البيزنطي بعزم الأمير إبراهيم على التوجه إلى القسطنطينية الأمر الذي جعله يحشد جيشاً كبيراً للدفاع عنها، وبالتالي يحد من قدرات الجيش الذي أرسله إلى صقلية، فهل كان تسريب هذه الأنباء لعبة ذكية من الأمير ليشغل الإمبراطور بالاستعداد للدفاع عن عاصمته ويصرف نظره عن صقلية وجنوب إيطاليا، أو على الأقل يجعله ذلك ينازل المسلمين بجزء يسير من طاقاته وليس بمعظمها، أم أنه كان يعتزم بالفعل التوجه لمهاجمة القسطنطينية؟ هذا ما لا نجد في المصادر التاريخية المتيسرة ما يرجح أياً من الافتراضين على الآخر.

وعلى أية حال، فإن صح الافتراض الأول، فإنّ ذلك يؤكد بعد نظر الأمير إبراهيم وسعة أفقه وحنكته السياسية، ذلك أن شغل البيزنطيين بالاستعداد للدفاع عن عاصمتهم يعني غل أيديهم عن التدخل الفعال في الحرب في جنوب ايطاليا إن لم نقل إبعادهم عن ساحة المعركة وهم الخصم القوي الذي لن يقف في وجه المسلمين غيره في تلك المنطقة، وبالتالي إطلاق يد الأمير إبراهيم في إيطاليا كلها التي كانت وقتئذ تعاني من التمزق والنزاعات الداخلية بين الحكام المحليين.

وإن كان الافتراض الثاني هو ما دار في مخيلة الأمير إبراهيم، وهو الأمر الذي لا نستبعده ولا نعتبره ضرباً من خيال ابن الأثير على صعوبة تنفيذه، فإن هذا الأمير يكون قد طمح لتحقيق أمنية عزيزة على رجال الحرب والسياسة المسلمين منذ عهد معاوية بن أبي سفيان، ولعله بذلك يكون قد تبنى فكرة حاكم عظيم سابق لإفريقية هو موسى بن نصير الذي تردد العديد من مصادر التاريخ الإسلامي أنه كان يصبو للوصول إلى دمشق مركز الخلافة الأموية عن طريق القسطنطينية، فإذا كان الكثير من المؤرخين لم يستبعدوا ذلك عن موسى بن نصير، فلماذا نستبعده عن الأمير إبراهيم؟

ولو عقدنا مقارنة بسيطة بين الأميرين لوجدناها تميل في صالح الأمير إبراهيم.

فالأمير إبراهيم بعد أن نذر نفسه للجهاد لم يكن يقل حماساً لخدمة الإسلام عن سلفه، كما أن الجيش الذي كان يقوده بعد أن نفخ فيه روح الجهاد لم يكن يقل عن جيش موسى بن نصير أيضاً عزماً وتصميماً واستماتة في سبيل الإسلام إن لم يكن أفضل منه تسليحاً وقدرة، وإذا كانت البحرية الإسلامية في عهد موسى لا تزال وقتئذ في طور النشأة، فإن الأسطول الأغلبي كان في عهد الأمير إبراهيم أفضل تدريباً وتسليحاً وتمرساً وخبرة بشؤون البحر بعد أن اكتسب هذه الخبرة على مدى أجيال متعاقبة بخاصة منذ بداية العهد الأغلبي، وأثبت بالانتصارات الكثيرة التي أحرزها أنه ند للأسطول البيزنطي بل استطاع أن ينتزع منه السيادة على مياه وسط البحر الأبيض المتوسط كما سبقت الإشارة إليه، وخصصنا الأسطول بالذكر لأنه سيكون له الدور الأكبر في تنفيذ هذا المشروع سواء في نقل الجند أو المساندة وإحكام الحصار.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هنالك ثمة ميزة أخرى تميز بها عهد الأمير إبراهيم عن عهد سلفه، هي أن جزر وسط البحر الأبيض المتوسط وهي القواعد ومحطات الاستراحة المحتملة للأسطول الأغلبي في الطريق إلى القسطنطينية كانت إسلامية وما لم تكن كذلك كانت مسالمة للمسلمين بينما كان معظمها في عهد موسى تحت السيطرة البيزنطية، وهو أمر له دلالته الهامة، إذ أن الأسطول الأغلبي يكون في هذه الحالة مطمئناً إلى وجود قواعد إمدادات له في حين أن أسطول موسى كان يفتقر لمثلها إن لم نقل أنها كانت تشكل معوقات كبيرة له، ولا يحتج بوجود الأسطول الطولوني في شرق البحر المتوسط مما يحمل في طياته احتمال نشوب اشتباك بين

الأسطولين لفتور العلاقة بين الدولتين، ذلك لأن البيزنطيين أعداء لكلا الفريقين، فضلاً عن علاقة حاكميهما بالخلافة العباسية بوصفها والبين من ولاتها من وجهة النظر الرسمية، وبناءً عليه، فهو إن لم يقف موقف المساند للأسطول الأغلبي وهو الاحتمال الأقرب، فإنه على الأقل سيلتزم جانب الحياد.

لكل ذلك، وما دامت الظروف كهذه، فإننا وكما أسلفنا القول لا نستبعد أن تكون فكرة مهاجمة القسطنطينية قد خطرت للأمير إبراهيم، إما لحماية إفريقية وما يتبعها من ولايات وتخليص المسلمين من الخطر البيزنطي الذي لم يكن منذ الفتح يتهددهم غيره، أو للحج عن طريقها، فيذهب إلى الديار المقدسة بعد أن يكون بفتحها قد أدى للإسلام والمسلمين خدمة جليلة أو ربما للأمرين معاً، وليس ذلك فحسب، وإنما لا نستبعد أيضاً أن تكون قد خطرت له فكرة فتح روما المدينة العتيدة والأقرب بالنسبة له، والأسهل منالاً بعد هزيمته للبيزنطيين، وأن عبوره لمضيق مسيني كان لتحقيق هذا الهدف لا سيما وأنه سبق لمسلمي إفريقية أن اقتحموها في عهد جده أبي العباس محمدبن الأغلب، وظل الجيش الأغلبي يتردد بين المدينة وأحوازها نحو شهرين[1]، فإن صحت رواية ابن الأثير وبالتالي صح هذان الافتراضان، فإن طموح الأمير إبراهيم قد سما به إلى أن يكون هو الفاتح لهاتين المدينتين العظيمتين، ثم يتخذهما طريقاً له إلى مكة المكرمة، إنها فكرة جريئة إن لم نقل أنها خيالية، ولكن أوليس كثيراً من الأعمال العظيمة كان أساسها أفكار جريئة بل ربما بدت للبعض أنها خيالية؟

وأياً كان الأمر، فإن الأمير إبراهيم عبر مضيق مسيني إلى أرض قلورية

---

(١) انظر حسن حسني عبدالوهاب: ورقات ق٢ ص١١٤ وما بعدها، خلاصة تاريخ تونس لنفس المؤلف ص٨٢ وما بعدها.

(كلابريا) في ٢٥ رمضان ٢٨٩هـ/ ٣ سبتمبر ٩٠٢م واتجه إلى مدينة كسنتة Cosenza عازماً على فتحها، لذلك رفض الصلح الذي عرضه عليه أهلها، وفي ٢٥ شوال/ ٢ أكتوبر نزل بجيشه في واديها، وبدأ في توزيع أبنائه وأحفاده وقواده في السرايا على أبوابها لإحكام الحصار عليها، وفي تلك الأثناء داهمه مرض الذرب (الديسونتاريا) مما اضطره لاعتزال مباشرة القتال بنفسه والبقاء في المعسكر، وبالرغم من أن جيوشه أخذت تشن الهجوم عليها تلو الآخر ومجانيقه تدك أسوارها، إلا أن ابتعاد الأمير عن ساحة المعركة حتى (امتنع منه النوم وحدث به الفواق)[١]، كان له أثره القوي في هبوط معنويات الجند وتثبيط هممهم، فلم يجدوا في القتال كما يقول ابن الأثير[٢].

ولم تزل العلة تشتد به إلى أن أسلم الروح في ليلة السبت ١٨ من ذي القعدة ٢٨٩هـ/ ٢٥ اكتوبر ٩٠٢م، فاجتمع قواد الجيش وأسندوا الأمر إلى حفيده أبي مضر زيادة الله بن أبي العباس الذي عرض الصلح على أهل المدينة الذين لم يكونوا قد علموا بوفاة الأمير إبراهيم، على أن يدفعوا له الجزية فقبلوا بذلك وعقد الصلح، فانسحب أبو مضر بالجيش وعاد إلى بلرم مصطحباً معه جثمان جده، حيث أرسل منها إلى القيروان ليدفن بها كما يقول ابن الأثير[٣]، ويؤيده في ذلك أبو الفدا[٤]، وابن أبي

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦، انظر كذلك النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة ١٢٢، أبو الفدا: المختصر في تاريخ البشر ج٢ ص٥٠ وما بعدها، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر السابق ج٦ ص٦.

(٤) أبو الفدا: المصدر السابق ج٢ ص٥٠ وما بعدها، كذلك الوزير السرّاج: الحلل السندسية: ج١ ق٤ ص٨٨٢.

دينار[1]، الذين أخذنا برواياتهم، أما النويري[2] فيقول أنه دفن في بلرم، ويؤيده في ذلك ابن خلدون[3]، وابن عذاري[4]، وبذلك طويت صفحة هذا الأمير العظيم بعد حياة حافلة بالأعمال الجليلة والحوادث الجسام.

إبراهيم الثاني في نظر التاريخ:

كان لا بد لسيرة حاكم كالأمير إبراهيم حفل عهده الطويل بالحوادث الجسام من أن تثير الخلاف بين المؤرخين والكتاب كما يحدث عادة بالنسبة لكبار الرجال، فكان منهم المقرض، ومنهم المستحسن لبعضها والمستنكر لبعض آخر، ومنهم المغرض الذي استهواه تصيد بعض الهفوات فلم ير غيرها وحولها تهماً شنيعة ألصقها به لغرض في نفسه، فهو في نظر الفقهاء والصالحين جائر ظالم، لأن هؤلاء يقيمونه وفق مقاييس لا تكاد تنطبق إلّا على الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم.

وهو في نظر السياسيين، سياسي بارع يتصف بالحزم وبعد النظر والكفاءة الإدارية العالية، وفي نظر العلماء ليس عالماً فحسب، وإنما راعي نهضة علمية مباركة، وعند المهتمين بالحركة الحضارية، أحد أهم بناة صرح حضارة إفريقية الأغلبية التي كان لها أثر قوي في حركة الحضارة العربية الإسلامية في غرب العالم الإسلامي، وله مكانته السامية عند المهتمين بالجهاد وحركة الفتوحات الإسلامية.

وأما بالنسبة للمؤرخين، فابن الأثير رأى فيه الحاكم العادل الحازم في

---

(١) ابن أبي دينار: المؤنس ص٥٢.
(٢) النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة ١٢٢.
(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.
(٤) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٣٢.

أموره الذي آمن البلاد وقتل أهل البغي والفساد، والذي كان يجلس للعدل في جامع القيروان فينظر في ظلامات الرعية وينصف المظلوم من الظالم كما سبقت الإشارة إليه، ويصفه ابن خلدون بقوله: (وقام بالأمر أحسن قيام فأمنت البلاد)[1]، ويقول عنه أبو الفدا: (...وفتح الفتوحات العظيمة، وجاهد في الله حق جهاده...وكان له فطنة عظيمة وتصدق بجميع ماله،[2])، ويكرر الوزير السراج نحو هذا القول[3]، وأما ابن أبي دينار فيقول عنه: (وكان ذا فطنة عظيمة وصاحب معروف...ودانت له البلاد وصلح حالها في أيامه)[4].

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.

(٢) أبو الفدا: المصدر السابق ج٢ ص٥١.

(٣) الوزير السراج: المصدر السابق ج١ ق٤ ص٨٨٢.

(٤) ابن أبي دينار: المصدر السابق ص٥٢ وأما الفطنة العظيمة التي وصفه بها هؤلاء فيبرهن عليها ابن الأثير بحادثة يرويها ننقلها فيما يلي: (وكان له فطنة عظيمة بإظهار خفايا العملات «فمن ذلك» أن تاجراً من أهل القيروان كانت له امرأة جميلة صالحة عفيفة فاتصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم فأرسل إليها فلم تجبه فاشتد غرامه بها وشكى حاله إلى عجوز كانت تغشاه وكانت أيضاً لها من الأمير منزلة ومن والدته منزلة كبيرة وهي موصوفة عندهم بالصلاح يتبركون بها ويسألونها الدعاء فقالت للوزير: أنا أتلطف بها وأجمع بينكما وراحت إلى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت: قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها فخرجت المرأة ولقيتها فرحبت بها وأدخلتها وطهرت ثوبها وقامت العجوز تصلي فعرضت المرأة عليها الطعام فقالت: إني صائمة ولا بد من التردد إليك ثم صارت تغشاها، ثم قالت لها: عندي يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها فإن خف عليك إعارة حليك أجمّلها بها فعلت، فأحضرت جميع حليها وسلمته إليها فأخذته العجوز وانصرفت وغابت أياماً وجاءت إليها فقالت لها: أين الحلي؟ فقالت: هو عند الوزير عبرت عليه وهو معي فأخذه مني وقال: لا يسلمه إلاّ إليك فتنازعتا، فخرجت العجوز وجاء التاجر زوج المرأة فأخبرته الخبر فحضر دار الأمير إبراهيم وأخبره بالخبر، =

وأما الرقيق القيرواني فيصفه بالظلم والقسوة المتناهية بسبب المرض السوداوي الذي أصابه، ويورد العديد من الحوادث التي ارتكبها للتدليل على صحة وجهة نظره[١]، في حين ينقل عنه ابن خلدون قوله: (إنه كان جائراً ظلوماً سفاكاً للدماء وإنه أصابه آخر عمره مالنخوليا أسرف بسببها في القتل)[٢]، ويؤيده ابن عذاري في ذلك إذ يقول في حوادث سنة ٢٧٩هـ: (وفيها قتل إبراهيم بن أحمد من أهل إفريقية من قتل بطراً وشهوة . . .)[٣]، وأما ابن الخطيب فيقول: (وكان إبراهيم بن أحمد قد بدأ أمره بحسن السيرة، وسلوك المذاهب الحميدة، والتماس الخلل الكريمة، ثم عاد إلى الحافرة، وانقلب إلى ضد ما كان عليه، وفسد فكره لغلبة مزاج سوداوي ساءت له أخلاقه، وتغيرت ظنونه، فأسرف في القتل. . .)[٤] ويورد عدة حوادث للتدليل على قسوته ثم يعلق على ذلك بقوله: (اللهم لا ترحمه، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذي لا يعقبه رضاك ولا تمنحه

= فدخل الأمير إلى والدته وسألها عن العجوز فقالت: هي تدعو لك، فأمر بإحضارها ليتبرك بها فأحضرتها والدته فلما رآها أكرمها وأقبل عليها وانبسط معها، ثم إنه أخذ خاتماً من إصبعها وجعل يقلبه ويعبث به، ثم إنه أحضر خصياً له وقال له: انطلق إلى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم الحق الذي فيه الحلي وصفته كذا وهو كذا وكذا وهذا الخاتم علامة منها، فمضى الخادم وأحضر الحق، فقال للعجوز: ما هذا؟ فلما رأت الحق سقط في يدها وقتلها ودفنها في الدا وأعطى الحق لصاحبه وأضاف إليه شيئاً آخر وقال له: أما الوزير فإن انتقمت الآن ينكشف الأمر ولكن سأجعل له ذنباً آخر آخذه به فتركه مده يسيرة وجعل جرماً أخذه به فقتله).

(١) انظر النويري: المصدر السابق ج٢٢ ورقة ١٢٣ وما بعدها.

(٢) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.

(٣) ابن عذاري: المصدر السابق ج١ ص١٢٢.

(٤) ابن الخطيب: المصدر السابق ق٣ ص٢٩.

رحمتك)[1]. ويورد ابن أبي الضياف هذه الحوادث تحت عنوان (هوس إبراهيم بن الأغلب وشنائعه) أطلق عليه في ثناياها صفات الجهل والطغيان والغشم والجبروت وما شابهها[2].

وهكذا يظهر التباين بين هذه الآراء بوضوح الأمر الذي يفرض على الباحث المقابلة بينها بموضوعية وتجرد من كل غرض إلاّ محاولة الوصول إلى الحقيقة، والملاحظ، أن روايات الفريق الثاني من المؤرخين مردها جميعاً إلى رواية الرقيق القيرواني التي بسطها النويري في (نهاية الأرب)، فكانت مصدرها الرئيسي وبمثابة عمودها الفقري، إما بالنقل المباشر عن طريق الرقيق نفسه أو غير المباشر عن نهاية الأرب، ومع أن الرقيق يعتبر ثقة عند مؤرخي المغرب الإسلامي القدامى والمحدثين على حد سواء في قسم كبير مما كتب، إلاّ أنه في معالجته لتاريخ الأمير إبراهيم تخلى عن مبدأ الحياد والاعتدال الذي كثيراً ما اتصف به، ويبدا تحامله عليه في غاية الوضوح ويعود السبب في ذلك في اعتقادنا إلى علاقته بالدولة الزيرية التي كان حكامها في عهده لا زالوا ولاة للدولة الفاطمية على إفريقية والمغرب والتي قضت على الدولة الأغلبية وقامت على أنقاضها بعد مضي ما لا يزيد عن سبع سنوات فقط على وفاة الأمير إبراهيم، فهو قد خدم الدولة الزيرية مدة تزيد عن ثلث قرن كاتباً في ديوان الإنشاء (الرسائل) أولاً، ثم ارتقى في المناصب حتى ترأس ذلك الديوان أكثر من مرة، ولذلك، لم يكن يتوقع منه إنصاف من اعتبر خصماً للدولة التي كان يخدمها،بل إن الغمز في هذا الخصم والتشنيع عليه مجاملة لمخدوميه هو أمر ربما اعتبره من مهام عمله.

---

(١) ابن الخطيب: المصدر السابق ق٣ ص٣٠.

(٢) ابن أبي الضياف: المصدر السابق ج١ ص١٤٣ وما بعدها.

وهكذا نجد أن هذا الفريق من المؤرخين أخذ رواية الرقيق على أنها حقيقة مسلم بها، مع أن المنطق يفرض أن تتخذ بقدر كبير من الحذر، فلم يحاول أي منهم تمحيصها مع أن بعضهم مثل ابن الخطيب مثلاً يورد في مواضع أخرى من تاريخه نصوصاً تحمل في طياتها أسس نقض ما رواه عن الرقيق من حوادث منكرة في رأيه وتبرز أنها ملفقة، ولم يتمكن النويري من تخفيف هذا التشنيع الموجه من الرقيق فيما رواه عنه من تلك الحوادث التي استنكرها بتقسيمها إلى نوعين وضعهما تحت عنوانين كما يلي: (١- ومن مساوىء أفعاله)، (٢- ومن قبيح أفعاله)[١]، إذ بقيت كسوط جلاد ظالم يجلد تاريخ الأمير إبراهيم بلا رحمة حتى أدماه.

وعلى أية حال، فقد أجمع المؤرخون على تقسيم عهده إلى شطرين: أولهما شمل السنوات السبع الأول من حكمه، سار خلالها سيرة حسنة، فكان رفيقاً بالرعية وأشاع العدل والأمن والاستقرار، وأصلح الخلل في أجهزة الدولة، وحارب الفساد الذي كان ينخر في بعض قطاعات المجتمع، أما في ثانيهما فيقول ذلك الفريق المتحامل من المؤرخين أنه تغير خلاله وترك الرفق واتبع أسلوب العنف والبطش بسبب وبغير سبب.

والحقيقة كما نراها أنه ينبغي التمييز بين حياته العامة وحياته الخاصة، ونحن في ذلك نتفق مع الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[٢]، إذ أنه يعتبر من وجهة النظر العامة رجل دولة من الطراز الأول، فهو قد نجح في سياسته العامة في جميع الاتجاهات من اليوم الأول لولايته حينما حارب أهل القصر القديم واعتلى سدة الحكم، إلى يوم وفاته مجاهداً في إيطاليا، وقد عُرف بأنه راجح العقل، بعيد النظر، تواقا إلى القيام بجليل الأعمال

---

(١) انظر النويري: المصدر السابق ج٢٢ ص١٤٣وما بعدها.

(٢) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١١٤وما بعدها.

سواء في ميدان السياسة أو التنظيم والإصلاحات الداخلية أو النهوض بالحركة الحضارية بشتى مظاهرها[1]. فحظيت إفريقية في عهده تبعاً لذلك بمكانة مرموقة إلى الحد الذي جعل بعض كبار عصره يرسلون السفارات إلى بلاطه لتوثيق الروابط بينهم وبينه، مثل تلك السفارة التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي وتلك التي أرسلها الإمبراطور الكارولنجي.

وأما حياته الخاصة، فبالرغم من طابع الاستبداد الذي اتسم به حكمه، شأنه في ذلك شأن حكام عصره الذين لم يكونوا يميزون بين مصالحهم الذاتيه ومصلحة الدولة لارتباطهما في نظرهم برباط وثيق لا ينفصم، إلاّ أنه لم يكن حكماً غاشماً، وإنما كان من ذلك النوع الذي يوصف في عصرنا الحاضر بالحكم الاستبدادي المستنير، فقد كان هدفه الأسمى الذي عمل على تحقيقه بكل قواه، هو الحفاظ على سلامة دولته وتطويرها وبث روح التجديد فيها ومدها بكل أسباب الرقي والتقدم والنهوض بها إلى المستوى الذي ابتغاه، وكذلك توفير الأمن والاستقرار والرفاهية لرعيته بشتى الوسائل، وضرب كل عابث مهما علا قدره بيد من حديد. فمصلحة الدولة والرعية فوق كل اعتبار.

ومن هذا المنطلق، اشتد في معاملته في المخالفين لأوامره من رجالات الدولة والحاشية فضلاً عن الخارجين عليه من القواد وزعماء القبائل، إذ علمته التجارب أن المتنفذين وذوي الأقدار والأموال إذا أحسوا من أنفسهم قوة ولم يقمعوا، لم يؤمن شرهم وبطرهم، وأنهم إذا كف الحاكم عنهم أمنوا، دعاهم ذلك إلى منازعته وإثارة المشاكل في وجهه، وإعمال الحيلة[2]، وربما التآمر عليه للتخلص منه، وفي سبيل ذلك، كان لا بد له

---

1) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١١٥.

2) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٥١وما بعدها.

من أن يقع في بعض الأخطاء، والتي ضخمها أعداء الأغالبة بخاصة دعاة الفاطميين ومن كانوا في خدمتهم بعد زوال الدولة الأغلبية السنية للتشنيع عليها، وقد خص بهذا التشنيع والقدر الكبير من تشويه السيرة، لأن حظه شاء أن يكون هو الحاكم المعاصر لظهور الدعوة الفاطمية في إفريقية.

فمن المعروف أن من أول أسلحة القائمين على دعوة جديدة في أي زمان ومكان، هو إثارة الرعية على الحكم القائم بتشويهه وإلصاق شتى التهم بالحاكم لتنفيرها منه، وبالتالي اجتذاب الناس لدعوتهم، فهي حرب دعائية تسبق الصدام المسلح ويستبيحها الدعاة ما دامت تؤدي إلى نجاح دعوتهم، وإذا كان أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين الأكبر قد وصل إلى إفريقية في سنة ٢٧٩هـ في رأي بعض المؤرخين[١]، وفي سنة ٢٨٠هـ في رأي بعض آخر[٢]، فإن من الطبيعي إذن أن يتعرض الأمير إبراهيم الذي عاصر هذه الدعوة ما يقارب التسع سنوات لهذه الحملة.

ومع أن المصادر التاريخية المتيسرة لا تلقي الضوء الكافي على هذه الحرب الدعائية في عهد الأمير إبراهيم، إلاّ أنها تشير إليها بوضوح في عهد خليفتيه، وبصفة خاصة في عهد زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبة، إذ تقول بعض هذه المصادر أنه عند استفحال خطر أبي عبد الله الشيعي نتيجة للانتصارات العسكرية التي أحرزها لجأ زيادة الله إلى حرب الدعاية والتي لن نعدو الحقيقة إذا قلنا أنها كانت رد فعل مضاد للدعاية الفاطمية، فكتب كتاباً أمر بقراءته على الناس في مختلف أنحاء البلاد، يصف أبا عبد الله فيه بالكفر وتبديل الدين وارتكاب المحارم، ولعن الصحابة (رضي الله عنهم)، واستحلال دماء المسلمين، إلى جانب انصرافه إلى اللهو

---

(١) انظر على سبيل المثال ابن خلدون: المرجع السابق ج٤ ص٢٠٤.

(٢) انظر مثلاً ابن عذارى: المصدر السابق ج١ ص١٣٣ وما بعدها.

والعبث وشرب الخمر، كما حذرهم فيه (من إرجاف المرجفين «وتهويل المهولين أمر الفاسق اللعين»)[1]، ومن المعتقد أيضاً أن يكون الخليفة المكتفي بالله العباسي قد آزر الأمير الأغلبي في هذه الحرب بوصفه خليفة المسلمين الشرعي المُجمع عليه برسالة منه في أمر أبي عبد الله كتبت منها عدة نسخ أذيعت من المنابر وصفه فيها بما يشبه هذه الأوصاف، ويؤكد فيها ثقته بزيادة الله ويطلب من أهل إفريقية الوقوف إلى جانبه، وسواء صحت نسبة هذه الرسالة للخليفة أم لم تصح كما يرى القاضي النعمان[2] الذي كان شيعياً متعصباً وتبوأ مركزاً مرموقاً في الدولة الفاطمية، وإنها كتبت بأمر الأمير الأغلبي، فإن التحامل على أبي عبد الله الشيعي يظهر بجلاء في كلتا الرسالتين، الأمر الذي يجعلنا قياساً على ذلك، نعتقد بأن هذه الحرب الدعائية كانت قد بدأت في عهد الأمير إبراهيم وبالتالي كان لها هذا الانعكاس السلبي على سيرته في مؤلفات الفريق الثاني من المؤرخين، إذ عرضته إلى أضعاف أضعاف هذا التحامل والتشويه.

ومما يرجح ما ذهبنا إليه، أن ابن خلدون عندما تعرض لموضوع تقويمه، وصفه بالعادل والحازم وأنه قطع دابر البغي والفساد وأمنت البلاد في عهده كما تقدم ذكره وحينما وصفه بالجور والظلم وسفك الدماء، أسند ذلك إلى الرقيق القيرواني مصدره الذي استقى منه هذه المعلومات، الأمر الذي يجعلنا نستشف منه أنه لم يرغب في تحمل مسؤولية هذا القول فأفصح عن صاحبه حيث قال: (هكذا قال ابن الرقيق)[3].

وبناءً على ذلك، فإنه إذا كانت له أخطاء أو هفوات في حياته الخاصة،

---

١) انظر دكتور سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٥٦٨.
(٢) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص٥٦٨.
(٣) ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص٢٠٤.

والتي بلا شك لا يتحمل مسؤوليتها وحده، وإنما هي نتيجة لتراكم مساوىء عديدة من عهود سابقة على عهده كما يرى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، فضلاً عن تضخيمها، وإن منها ما نسب إليه افتراء إذ أن أبطالها شخصيات أخرى[1]، فإن له من الحسنات والأعمال المحمودة الكثير التي تتضاءل أمامها تلك الهفوات إلى حد أن الفريق الأول من المؤرخين أسقطوها من رواياتهم، فنجد مؤرخنا الكبير ابن الأثير مثلاً، قد نظر إليه من زاوية حياته العامة ولم يلتفت إلى حياته الخاصة رغم معرفته بما ذكره الرقيق عنه على اعتبار أنه قول ظالم وافتراء أو غير واقعي على أقل تقدير.

وعلى أية حال، يكفي الأمير إبراهيم إجماع المؤرخين على الشهادة له بحسن السيرة خلال السنوات السبع الأولى من حكمه وهي تساوي عهداً بأكمله من عهود الكثيرين من أسلافه، كما يقول الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد[2]، ثم حسن خاتمته حينما تاب وأناب وتنازل عن الحكم وتزهد ولبس الخشن من الثياب ووهب نفسه للجهاد حيث وافته منيته مجاهداً في أرض العدو.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٥٢.

(٢) انظر د. سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق ج٢ ص١٥٥.

ثبت المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد الشيباني) ت ٦٣٠هـ الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠.

٢- أرسلان: (الأمير شكيب). تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦.

٣- البكري: (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي) ت ٤٨٧هـ. المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، نشره دي سلان، الجزائر، ١٩١١.

٤- ابن جلجل: (أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي) (كان حياً سنة ٣٨٤هـ). طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.

٥- الجنحاني: (د. الحبيب). المغرب الإسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ/ ٩-١٠م)، الدار التونسية للنشر، ١٩٧٨.

٦- جوليان: (شارل أندري). تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامه، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨.

٧- حسين: (د. ممدوح). إسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم - شيخ الكيميائيين بالقيروان، مجلة العربي، عدد ٣٢٨، آذار (مارس) ١٩٨٦.

٨- الحموي: (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) ت٦٢٦هـ. معجم البلدان، دار صادر-دار بيروت، بيروت، ١٩٥٧.

٩- الخشني: (محمد بن الحارث). طبقات علماء إفريقية، الجزائر، ١٩١٤.

١٠- ابن الخطيب: (لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني) ت ٧٧٦هـ. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام، الجزء الثالث، تحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤.

١١- ابن خلدون: (أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن) ت٨٠٨هـ. كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة بولاق، القاهرة، ١٩٧١م.

١٢- الدباغ: (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي) ت ٦٩٦هـ. معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي (ت٨٣٩هـ)، ٣ أجزاء، الجزء الأول: تحقيق وتعليق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٨. الجزء الثاني: تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي، القاهرة - المكتبة العتيقة، تونس، بدون تاريخ. الجزء الثالث: تحقيق وتعليق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس ١٩٧٨.

١٣- ابن أبي دينار: (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني) (كان حياً في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة). المؤنس في تاريخ

إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٦٨.

١٤- الزبيدي: (أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي) ت ٣٧٩هـ طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ.

١٥- السراج: (محمد بن محمد الأندلسي الوزير) ت ١١٤٩هـ. الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٠.

١٦- سويسي: (نجاة باشا «ولدت»). التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن للهجرة، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، ١٩٧٦.

١٧- ابن أبي الضياف: (أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن نصر) ت ١٢٩١هـ إتحاف أهل زمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء الأول، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٧٦.

١٨- عبد الحميد: (د. سعد زغلول). تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩.

١٩- عبد الوهاب: (حسن حسني) -خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦. - شهيرات التونسيات، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٦٥. - ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، مكتبة المنار، الطبعة الثانية، تونس، ١٩٧٢.

٢٠- ابن عذاري: (أحمد المراكشي) (كان حياً سنة ٧١٢هـ). البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، الجزأين الأول والثاني في ٤ مجلدات، منشورات دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧. المجلدين الأول والثاني: تحقيق ومراجعة ج. س. كولان. أ. ليفي بروفنسال. المجلد الثالث: تحقيق أ. ليفي بروفنسال. المجلد الرابع: تحقيق د. إحسان عباس.

٢١- عياض: (القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن) ت ٥٤٤هـ. ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، مقتطفات منه، بعنوان: (تراجم أغلبية من المدارك)، تحقيق د. محمد الطالبي، نشر الجامعة التونسية، تونس ١٩٦٨.

٢٢- أبو الفدا: (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل) ت ٧٣٢هـ. المختصر في تاريخ البشر، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

٢٣- المالكي: (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) (كان حياً في أواسط القرن الخامس للهجرة). رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، الجزء الأول، تحقيق د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١، والباقي مخطوط.

٢٤- النويري: (شهاب الدين أحمد) ت ٧٣٣هـ. نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، مخطوط مصور، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية رقم ٢٢م.

٢٥- هوبكنز (ج. ف. ب.). النظم الإسلامية في المغرب في القرون

الوسطى، تعريب د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس، ١٩٨٠ .

٢٦- **الوزان**: (الحسن بن محمد المعروف بليون الإفريقي) ت (في حدود ١٥٥٠م). وصف إفريقيا الشمالية، تعريب عبد الرحمن حميده، مراجعة د. علي عبد الواحد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٩هـ.

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة